
جامعة الزيتونة
مجمع الدراسات العربية العالية

محاضرات
في
اللهجات واسلوب دراستها

ألقاها

الدكتور

أبيس فرجة

[على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية]

١٩٥٥

١٩٥٥

اللهجات وأسلوب دراستها



مقدمة

إن قضية « الفصحى والعامية » ، من أهم المشاكل التي تثير الجدل والمناقشة بين رجال الفكر والقلم ، في مختلف البلاد العربية ، منذ مدة خير يسيرة .

ذلك لأن الفصحى لا يعرفها إلا المثقفون ، ولا يتخاطب بها إلا طوائف محدودة من هؤلاء ؟ وأما العامية الدارجة ، فهي كثيرة الأنواع ، تختلف اختلافاً بيناً لا من قطر إلى قطر فحسب ، بل من مدينة إلى مدينة في القطر الواحد أيضاً . حتى إنها تختلف بعض الاختلاف من حارة إلى حارة ، ومن جماعة إلى جماعة ، في المدينة الواحدة ، في بعض الأحيان .

إذن ، فنحن — عرب اليوم — بين لغة فصحي ، يتفاهم بها بعض الناس في جميع البلاد العربية ؛ وبين لغات عامية عديدة ، يتفاهم بكل منها جميع الناس ، في بعض المناطق المحدودة من بعض البلاد العربية .

ولا حاجة إلى القول . بأن هذه الحالة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية السليمة ، من وجوه عديدة :

فإن كل أمة من الأمم تحتاج إلى لغة « موحدة » ، تزيدها تجاوباً وتماسكاً ، فتكون « موحدة » .

لأن مهمة اللغة — في الحياة الاجتماعية المعقدة الحالية — لا تنحصر في ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون في قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون إلى إقليم واحد ، أو قطر واحد ، بل هي ضمان التفاهم والتكاتب والتخاطب والتجاوب . . بين جميع أبناء الأمة ، على اختلاف مذهبهم وأقطارهم .

والتاريخ الحديث ملء بأمثلة بليغة ، على الجهود الجبارة التي بذلها — ولا يزال يبذلها — عدد غير قليل من الأمم والدول في هذا السبيل ، قوطنة لاستقلالها ، أو ضمناً لوحدها .

(ب)

فنحن العرب نفتقر اليوم إلى « لغة » يتفاهم بها جميع الناس ، في جميع الأقطار العربية .

ولكن ، ما السبيل إلى ذلك ؟

ماذا يجب أن نعمل للتخلص من البلبلة الحالية ، والتعصم بنعمة « لغة » موحدة وموحدة ، في جميع الأقطار العربية ؟

إذا تأملنا في هذا الأمر بالمنطق المجرد ، خطر على بالنا ثلاثة سبل أساسية :

(أ) السعي وراء نشر وتعميم لغة من اللغات الدارجة — أى لهجة من اللهجات العامية — على جميع البلاد العربية ؟

(ب) السعي وراء نشر اللغة الفصحى ، بين جميع طبقات الشعب ، في كل قطر من الأقطار العربية .

(ج) السير على طريقة متوسطة بين الأولى والثانية ، على أساس تطعيم اللغات الدارجة باللغة الفصحى .

ولا حاجة للبيان أن الطريقة الأولى — أى طريقة تعميم لغة من اللغات الدارجة على جميع البلاد العربية — غير منطقية وغير عملية . فلا بد من التوجه إلى اللغة الفصحى ، التى لها جذور عميقة وأسس متينة ، ويمثلون أقوياء ، في جميع البلاد العربية . ولذلك يحسن بنا أن نحصر البحث والنقاش في الطريقتين الأخيرتين وحدهما :

من المعلوم أن قواعد الفصحى : في حالتها الحاضرة ، معقدة كل التعقيد ، وصعبة أشد الصعوبة ، وبعيدة عن اللهجة الدارجة بعداً كبيراً . فيجدر بنا أن نتساءل : هل من الضروري أن تتمسك بجميع تلك القواعد التى وضعها أودرنها اللغويون منذ قرون عديدة ؟ هل يتحتم علينا أن نصرف قوانا في سبيل نشر وتعميم جميع تلك القواعد والأساليب ؟ ألا يمكن أن نختصر ونبسّط اللغة الفصحى ، ونشذبها تشذيباً معقولاً ، يكسبها شيئاً من السهولة ، من غير أن يفقدها ميزتها التوحيدية ؟ أفلا نستطيع أن نطعم اللغات الدارجة

باللغة النصحي تطعما يبعدنا عن حذقة علماء اللغة ورطانة عوام الناس ،
 في وقت واحد ، فيوصلنا إلى فصحي متوسطة ، معتدلة ؟ أفلا يحسن بنا
 أن نلجأ إلى هذه الطريقة ، ولو بصورة مؤقتة ، كمرحلة من مراحل السير
 والتقدم نحو النصحي الشامة ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة — إجابة صحيحة — تتطلب القيام بأبحاث
 علمية واسعة النطاق ، تناول اللغة النصحي واللغات الدارجة في وقت واحد ،
 وتدرس القضايا بجميع تناسيلها ، وتقلب المسائل على جميع وجوهها .
 أولا ، يجب أن نبحت : ماهي الحدود الفاصلة بين النصحي وبين العامة ؟
 ماهي الفروق التي تميز الأولى عن الثانية من حيث المفردات وكيفية لفظها
 من ناحية ، ومن حيث التراكيب وأسلوب ترتيبها من ناحية أخرى ؟

وفي أمر المفردات : هل يجوز لنا أن نعتمد على المعاجم والقواميس
 المعلومة كل الاعتماد ؟ يجب أن نفكر في ذلك ملياً ، لأنه من المعلوم أن تلك
 المعاجم مزدحمة بكثير من الكلمات المهجورة التي لم يعد أحد يشعر بحاجة
 إلى استعمالها ، ومقابل ذلك أنها خالية من عدد غير قليل من الكلمات التي
 استعمالها ولا يزال يستعملها أشهر الأدباء والعلماء في أهم آثارهم العلمية والأدبية ،
 كما أن الكثير من الكلمات القاموسية تستعمل الآن في معان تختلف عن
 المعاني التي كان قد درنها القدماء كل الاختلاف ، فلا بد لنا من أن نبحت عن
 معيار آخر يساعد على تمييز النصيح عن العامي تمييزاً معقولاً .

وفي أمر القواعد : هل يترتب علينا أن نعتبر آراء العلماء القدماء القول
 الفصل فيها ؟ أفم يختلف هؤلاء أنفسهم فيما بينهم في أمور التجويز والتفضيل
 والترجيح ؟ أفلا يحقق لنا أن نعيد البحث والنظر في تلك الأقوال والآراء ،
 وأن نسلك مسلكاً يختلف عن مسالكهم في أمر التجويز والتفضيل ؟ هل يتحتم
 علينا أن نسعى وراء نشر وتعميم تلك القواعد بحذافيرها ؟ أفلا يمكننا أن
 نستغنى عن البعض منها لنجعلها أقل تعقيداً وأكثر قابلية للانتشار ؟
 وفي الأخير ، ولو قلنا بوجوب التمسك بجميع تلك القواعد ، أفلا يجب

علينا أن نرتبها ترتيباً معقولاً ، لنقدم الأهم على المهم . ونسير على قاعدة التدرج في جهودنا ، التفصيحية ، ؟

* * *

ثانياً : يجب علينا أن ندرس اللغات العامية dialects واللهجات المحلية patois ، المنتشرة في مختلف البلاد العربية : ماهى أنواعها ؟ وماهى خصائص كل نوع منها من حيث الكلمات والألفاظ والتعابير ؟ وماهى حدود انتشار كل واحدة من تلك الكلمات والأساليب والتعابير ؟ وماهى أسباب اختلاف هذه اللهجات عن الفصحى من ناحية ، وبعضها عن بعض من ناحية أخرى ، ألا يوجد بين الكلمات الدارجة في بعض البلاد ما ينطبق على قواعد الفصاحة كل الانطباق ؟ ألا يوجد بين اللغات الدارجة صفات واتجاهات عامة ومشتركة ؟ ألا تدل هذه الاتجاهات العامة والمشاركة على وجود دوافع عامة وضرورات مشتركة ؟ أفلا يجب علينا أن نستكشف هذه الدوافع والحاجات لكي نستطيع ان نعالجها بأساليب أقرب إلى الفصاحة على قدر الإمكان ؟

* * *

إن كل هذه الأمور والمسائل يجب أن تدرس وتبحث بكل اهتمام . وفضلاً عن ذلك كله يجب علينا أن نتبع التطورات التاريخية أيضاً : من المعلوم أن اللغة كائن حي ، يتطور على الدوام بتطور المجتمع وينمو تبعاً لنمو الأفكار وتنوع الحاجات . فإن لكل كلمة ، وكل أسلوب ، فى كل لغة وفى كل لهجة تاريخ طويل أو قصير ، ماض قريب أو بعيد .

إن نظرة فاحصة سريعة إلى ما طرأ من تحولات على اللغة العربية فى مختلف البلاد خلال جيل واحد تقريباً — منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى مثلاً — تكفى للتأكد من صحة ما قلناه آنفاً . لقد حدثت تطورات كبيرة فى لغة الدواوين ، وفى لغة الصحف ، وفى لغة التخاطب فى مختلف البيئات . فى جميع البلاد العربية فقد دخل فى كل منها عدد كبير من الكلمات الجديدة

مشتقة من أصول فصيحة ، أو مقتبسة من اللغات الأجنبية . معظم هذه الكلمات المقتبسة ، كانت فرنسية في بعض البلاد العربية ، وانكليزية في بعضها الآخر ، وأسبانية في بعضها وإيطالية في بعضها الآخر ، وذلك تبعاً للأوضاع السياسية الخاصة التي طرأت على كل واحدة من تلك البلاد . ومن جهة أخرى بدأت حركة معا كسة لذلك لترك تلك الكلمات الأجنبية واستبدالها بكلمات عربية .

ثم إن ازدياد التواصل والتعامل والتزاور بين المدن والأرياف من جهة ، وبين الأقطار المختلفة من جهة أخرى ، أدى إلى حدوث تغير محسوس في أوضاع اللغات المحلية وفي التعابير العامة أيضاً : صارت لهجات بعض العواصم تتركز تأثيراً كبيراً في اللهجات الفرعية ، كما أن لغة عامة الناس أيضاً أخذت تهذب وتتطور بتأثير انتشار التعليم ، وإزدهار الصحافة ، وتعرب دواوين الحكومة ، وقيام الحياة النيابية .

ولا نغالي إذا قلنا ، إنه أخذاً يتكون في بيئات المثقفين في جميع البلاد العربية نوع من « لغة التخاطب » اقتبست الشيء الكثير من خصائص الفصحى ، وتباعدت عن الكثير من أساليب العامة .

فيحسن بنا أن تعمق وتوسع في دروس هذه التطورات وتدوينها ، لنستفيد منها ونستثير في تقرير خططنا الإصلاحية .

يتبين من كل ما تقدم ، أن الأبحاث اللغوية لا يجوز أن تبقى محصورة بين صحائف الكتب والمعاجم المعلومة ؛ بل يجب أن تخرج إلى ميادين الحياة الاجتماعية ، وتدرس وتسجل ما يشاهد وما يلاحظ في تلك الميادين بصورة فعلية .

ويجب علينا أن لانتسى أن علماء اللغة القدماء تجولوا بين القبائل ، ودنوا ما سمعوه وما لاحظوه بكل تفصيل واهتمام . فيحسن بنا أن نقدى

بهم في هذا المضمار : فنلاحظ ونسجل ما نسمعه من خصائص الكلام ، في كل مدينة وفي كل بيئة ، بين الزراع والعمال ، بين البنائين والتجار ، في المدن والأرياف ، بين الرجال والنساء ، بين الكهول والأطفال .

ولا يجوز لنا أن تتعاس عن العمل في هذا السبيل بحجة « الاكتفاء باللغة القصوى » ؟ إذ يجب علينا أن نعلم العلم اليقين بأن تغيير الأشياء وتحسينها يتوقف على معرفة خصائصها ومراعاة نواحيها ..

إن معهد الدراسات العربية العالية قد أدخل في برامجه أمر دراسة « اللهجات العربية الحالية » (بناء على الملاحظات الآتية الذكر) والغاية القصوى منها ، هي اعداد الأبحاث العلمية اللازمة لاستكشاف أنجع السبل لجعل لغة الضاد « موحدة وموحدة » في جميع البلاد العربية . إن محاضرات الدكتور أنيس فريجة — التي نقدمها اليوم — هي مقدمة هذه الدراسات .

١٩٥٥ / ٢ / ١٩

أبوخلدون

ساطع المصري

مقدمة

يحسن بنا ، ونحن في هذه الغمرة من المشاكل الإجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أن نعيد النظر في تقييم الأشياء ، حتى وإن كانت هذه الأشياء من الحرمات والمقدسات . لأن على الأمة الناشئة التي تبنى للحياة أن تؤسس على حقائق ، إذ لا يحرر الفكر سوى الحقيقة .

واللغة من الأمور التي ينبغي لنا أن نعيد النظر فيها . فاللغة أساس الفكر وطريق الإنسان لإدراك الكون . ولكن تفكيرنا اللغوي لا يخرج عن نطاق التاريخ والتقليد ، ونظرتنا إلى اللغة لا تعدى حدود العاطفة . ورغم أن العرب اليوم يحاولون أن يجابهوا قضاياهم الاجتماعية والسياسية بروح الموضوعية العلمية نراهم في قضايا اللغة يثرثرون لعاطفة ويحكمون القلب . ولكن اللغة شأنها شأن كل مؤسسة بشرية أخرى تخضع للسقم والكيف ، وقد آن للعرب أن ينظروا إلى اللغة نظرهم إلى أية مؤسسة أخرى تخضع لقوانين العلم .

وإنني أشعر بإعزاز وفخر أن أتيح لي معهد الدراسات العربية العالية فرصة إثارة قضية اللغة ودرستها على صعيد الفكر . ففي هذه المحاضرات القليلة العدد سنعيد النظر في تعريف اللغة وتطورها وتجزئتها إلى لهجات محكية وأسلوب دراسة هذه اللهجات دراسة تقريرية وصفية (descriptive) وسنخصص لهجة لبنان بأكثر نصيب من البحث .

وموضوع اللغة الأدبية والمحكية موضوع خطير ، ولكنه حساس مثير . ولا غرو فاللغة لصيقة بالدين والأدب والتاريخ والقومية . ولست أشك في أن ما أقوله خروج على المؤلف في تفكيرنا اللغوي . ولكنني موقن أنكم ستقبلون هذه النظريات بالروح التي يفرضها العلم .

أنبس فريجه

مشكلتنا اللغوية

تتضمن مشاكل اللغة العربية الأساسية في خمسة أمور :

- (أ) وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحى .
- (ب) تقييد الفصحى بأحكام شديدة .
- (ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة (vowels) .
- (د) عجز العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون .
- (هـ) تدريس اللغة العربية وقواعدها على أساليب قديمة .

(أ) وجود لغتين مختلفتين : عامية وفصحى :

مشكلتنا اللغوية الأولى مشكلة كل شعب مزدوج اللغة (bilingual) .
فإننا نفكر وتكلم ونفخى وتتم صلواتنا وتناغى أطفالنا ونهمس في آذان من
نحبهم وتفاهم مع من نرغب في التفاهم معهم ، وننشأ مع من يروق لنا
أن نشأ معهم بلغة محكية سلسلة سيالة لا تعوق الفكر ولا تتصلب منا
جهداً . ولكن عندما نفق مواقف رسمية — كأن يكون أحدنا معلماً
أو واعظاً أو محامياً أو محدثاً في الإذاعة أو محاضراً في قاعة الدرس — علينا أن
نتلبس بشخصية لغوية ثانية . علينا أن نتكلم لغة غريبة عن لغة الحياة اليومية ،
معرّبة شديدة الأحكام في التركيب والتعبير . واللغة هي الفكر أو أساس
الفكر ، فإننا نفكر بوساطة اللغة ، وإذا أدركنا الأمور فإننا ندركها
بوساطة اللغة ، وإذا تصورنا الأشياء فإننا نتصورها بوساطة اللغة ،
وإذا إنتقلت إلينا اختبارات الإنسانية فإنها تنتقل إلينا بواسطة اللغة . فاللغة
عنصر من عناصر الحياة الإنسانية وهي جزء من جهازنا العصبي البيولوجي .
وهنا يقع التناقض ، فإن علينا ، في المواقف الرسمية أن نتكلم وأن نكتب
لغة وقفت في تطورها عند نقطة معينة في الزمان والمكان .

أما لغة الناس التي لم يُيسَّج حولها بسياج من الأحكام الشديدة ، فقد تجزأت إلى لهجات محكية ، يسرتها الحياة وصقلتها الأيام .

(ب) تفسير الفصحى بأعظم شذيرة : نسألكم مع اللهجات

واللغة لا تقيد . اللغة مجرى . غير أن منزلة اللغة العربية في الدين والقومية قضت أن يُيسَّج حولها بسياج من الأحكام والقواعد . وشأنُ العربية في هذا شأن كل لغة أخرى يحرص أهلها على حفظها من التجزؤ والتفكك وقد تأثر قدامى اللغويين بأصول المنطق الإغريقي وخاصة بفلسفة أرسطو اللغوية . فإنه — أرسطو — كان يرى أن للغة تركيباً خاصاً وهذا التركيب هو المنطق السليم . فراح يضع للغة صرفاً فلسفياً (Philosophical grammar) مبنيًا على العلة والمعلول والعامل والمعمول والتقدير والإضمار والافتراض . وأنت إذا درست فلسفة النحو العربي وجدت أنه لا يخرج بجوهره عن فلسفة أرسطو في اللغة إن من جهة التبويب أو من جهة التعليل وقد حاول لغويو العرب أن يوجدوا ناموساً عاماً لجميع المظاهر اللغوية وحاولوا أيضاً أن يحدوا منطقاً للغة . ولكن اللغة لا تخضع لنواميس عامة ثابتة ، ولا تخضع لقوانين المنطق . ومن هنا كانت الصعوبة في وضع الأحكام ، ومن هنا نشأت القواعد الفرعية والاستثناءات والشواذ .

(ج) الخط العربي الخالي من الحروف المصوتة (vowels)

فإن العربية شأنها في الكتابة شأن سائر اللغات السامية التي اقتضت في الكتابة على الحروف الصامتة مما يجعل من صورة الكلمة هيكلًا عظمًا لا حياة له . وهذا يجعل عملية القراءة أمراً عسيراً إذ تفرض هذه الطريقة في الكتابة — كتابة الحروف الصامتة فقط على القارئ أن يفهم أولاً ، كما قال قائم أمين ثم أن يقرأ قراءة صحيحة ثانياً . وهذا على نقيض الغاية من القراءة فإنما الشعب الوحيد الذي يجب أن يفهم ليقراً بينما جميع شعوب الأرض تقرأ تفهم . كان ولد يقرأ على أستاذه نصاً خالياً من الحركات . فأتى على كلمة

« فستكون » فوقف التليذ أمام هذا الهيكل العظمى الميت حائراً لا يدري كيف يتلفظ به وبعد عزالات عدة قرأها فستكون (FSTKWN) فكانت نكتة ضحكنا منها كثيراً . ولكن الطالب قرأ واحدة من الأمكانيات التي تعد بالملئات ، وإن كنت في شك من ذلك سل مدرساً في الرياضيات فإنه يعطيك القاعدة الرياضية !

وقد أدرك مجمع فزاد الأول للغة العربية خطورة هذه المشكلة من ناحيتها التربوية والفكرية والاقتصادية فوضع جائزة قدرها ألف جنيه مصرى لمن يقدم أفضل إقترح ، أو لمن يرسم أفضل هجاء من شأنه تسهيل القراءة ، والمشكلة لا تزال قائمة .

(د) تفصيل العربية عندهم بالعلوم والفنون

إذ ذلك لأن معظم هذه التعابير الجديدة والمصطلحات المحددة معنى وإستعمالاً لم تكن يوماً من المعجم العربى ولم تكن من القضايا العلمية والفكرية التي عني بها الفكر العربى ، لأن الفكر العربى لأسباب وقف في التاريخ عند نقطة معينة ، فمن الطبيعى أن تجد العربية نفسها الآن عاجزة عن اللحاق بالعلوم والفنون .

لغة كل شعب مرآة حياته وبيئته . فإن لغة الأسكيمو الفقيرة بمفرداتها تصلح أن تكون أداة حسنة للتعبير عن حياة الأسكيمو وعن محيطه الجاف القاسى ، ومن يطلب من لغة الأسكيمو ، دون تعديل فيها ، أن تنقل حضارة الغرب اليوم بفكره وروحه وعلمه إنما يطلب المستحيل ، وكل من يعتقد أن العربية اليوم ، بحالتها الحاضرة ، وبالنسبة إلى ترمت بعض الناطقين بها ، تستطيع بيسر أن تعبر عن مختلف العلوم والفنون وأهم .

نعم ، إن اللغة العربية غنية بمفرداتها في نواح كثيرة ، عظيمة الإمكانيات في اشتقاقها وقياسها ، وقد إستطاعت يوماً أن تنقل إليها حضارات الشرق الأدنى عن طريق الترجمة والتعريب والتوليد وإحياء مفردات قديمة وإسباغ المعاني الجديدة عليها ، ولكن تقدم العلم والفن والفلسفة في القرنين الأخيرين

— وفي القرنين الأخيرين كنا نياما — كان سريعاً فأفقنا ولغتنا قاصرة عن التعبير عن هذه الحياة الجديدة .

(هـ) تدريس اللغة العربية وقواعدها على أساليب قديمة

إن تدريس اللغة العربية وقواعدها لا يختلف اليوم جوهر أ عما كان عليه في حلقات الكوفة والبصرة وفي مدرسة بغداد التوفيقية على يدى ابن الأنبارى . نعم ، قد يكون في بعض كتب القواعد شيء من التسهيل والتقريب والتبسيط والإكثار من الشرح والأمثلة ، إنما جوهر الأسلوب في تبويبه وفي مصطلحاته وفي تعليله لا يختلف عن أساليب القدماء وتعليلهم . وكثيرة هي المحاولات التي قام بها صرفيون قدماء ومحدثون لتذليل النحو والصرف وتقريبه من أفهام الناس ، ولكن هذه المحاولات لم تمس الجوهر ولا عدلت في المصطلحات ولا خففت من إرهاق التعليل ، فكان من نتائج هذا الأسلوب النفرة التي نلاحظها عند طلاب العربية ، وهذا الضعف الذي يظهر في مستوى التلاميذ عند إنقضاء فترة الدراسة الثانوية . ولنا في الموضوع إقتراح نشرناه في الناس بشكل كتاب سميناه « تبسيط قواعد العربية وتبويبها على أساس منطقي » . قبل به بعض الناس وسفه رأينا البعض الآخر .

* * *

هذه مشاكل اللغة العربية الأساسية ، وكل مشكلة منها تحتاج إلى دراسة عميقة وإلى حلول عملية . ونحن لانشك في أن بعض هذه المشاكل ميسور الحل وبعضها يحتاج إلى عنصر الزمن . وقد أثرنا استعراض المشاكل اللغوية استعراضاً مقتضباً سريعاً في بدء المحاضرات لنرى إذا كان في درسنا العربية وتطورها ونشوء لهجاتها ما يعيننا على إيجاد الحلول الصالحة ، لأن حل أية مشكلة يتطلب تفهم المشكلة أولاً ، وتوفر العزم والإرادة ثانياً .

ماهى اللغة

لن نجيب عن هذا السؤال الذى يبدو بسيطاً ، بتعريف جامع مانع كأن نقول : « اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ، أو أداة للتفاهم ، أو وسيلة لنقل المعانى ، لأن صوغ تعريف علمى شامل للغة ليس بالأمر اليسير كما قد يتبادر إلى الذهن .

وقد يبدو ترددنا فى تعريف اللغة غريباً ، لأن اللغة ، من الأمور الطبيعية المألوفة التى يمارسها جميع البشر على اختلاف أجناسهم عفوياً . فإنها لا تتطلب جهداً ولا تفكيراً . يستعملها الولد بيسر ، وهى عملية بسيطة كالمشى والأكل والشرب والنوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام . وهانحن نتكلم فى كل حالة من حالات الحياة وفى كل ساعة من ساعات الليل والنهار سواء كنا نائمين أو حالمين أو هاذين . فلماذا نقول إن تعريفها أمر شاق ؟

خذ هذا التعريف المكرر : « اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ، وحاول تطبيقه على واقع اللغة ثم سل نفسك : هل صحيح أن اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ؟ هل اللغة مجموعة أصوات ؟ هل فكرة « البيت » قائمة فى الأصوات التى تتألف منها اللفظة ؟ بكلام آخر ما علاقة أصوات حروف الكلمة ومعناها ؟ أليس المعنى قائماً فى الاختبار لا فى الصوت ؟ عندما نسمع لفظة « بيت » أليس الاختبار فى حنايا العقل وهو الذى يترجم الصوت إلى المعنى ؟ ولك أن تسأل هل كل صوت هو « لغوى » ؟ كلا . فأن هناك أصواتاً عديدة لا تدخل فى نطاق الأصوات اللغوية كالأصوات الطبيعية والحيوانية وبعض الأصوات التى نخرجها من بين الأسنان ، أو من الخيشوم أو من أقصى الحلق ، أو كالأصوات التى نحدثها بالتواءات مختلفة للسان ، هى جميعها أصوات لا تدخل فى نظام الأصوات اللغوية . إذاً علينا أن نحدد كلمة الصوت اللغوى .

وعلماء اللغة ، رغبة منهم في الدقة العلمية ، يطلقون على أصوات اللغة مصطلحاً علمياً : فونيم (وجمعها فونيمات Phoneme) أى الوحدة الصوتية للغة . ويعنون بالفونيمات مجموعة الوحدات الصوتية التى تشكل النظام الصوتى للغة . وتشتمل الفونيمات عادة بحروف الهجاء ، ولكن حذار من أن نعتقد أن عدد الفونيمات فى اللغة ينبغى له أن يطابق عدد حروف الهجاء فى تلك اللغة . كلا ، فقد يتكون للغة ما ٢٦ أو ٢٧ أو ٢٨ حرفاً هجائياً ولكننا إذا أحصينا عدد فونيمات هذه اللغة لوجدنا أنها تربو على عدد حروف الهجاء . ونمثل لك على هذا بفونيم «ث» فى اللغة الإنكليزية فإنه عنصر من عناصر اللغة كما فى Thin . ولكن هذا الفونيم لا رمز له (أى لا حرف له) بل يرمزون إليه بحرفى Th . وقل هذا فى فونيم «ذ» فإنه عنصر من عناصر الإنكليزية كما فى لقطة Mother ولكن فونيم «ذ» لا رمز له (أى لا حرف له) بل يرمزون إليه بحروف أخرى .

وفضلاً عن هذا فإن علماء الفونيتيك يقولون لنا إن للفونيم الواحد أكثر من لفظ واحد . قد يكون له ثلاثة ألفاظ أو أربعة . فونيم P فى كلمة Speak هو غيره فى اللفظ فى كلمة park . وقل هذا فى فونيم t فإنه فى sting غيره فى teem . قد لا تستطيع أذن أو أذناك أن تميز بين لفظ وآخر للفونيم الواحد ولكن الآلة المسجلة والفونيتيكى المحرب يستطيعان ذلك . وما قولك فى هذه الفونيمات : aeio ؟ ألا تختلف لفظاً تبعاً لوقوعها فى كلمات مختلفة ؟ هل الفونيم a فى father وفى fat وفى female واحد فى اللفظ ؟ ثم اعتبر الشق الثانى من التعريف : « اللغة أداة للتعبير عن الفكر » يقول لنا بعض البسيكولوجيين إن اللغة هى الفكر ذاته ، أو هى أساس الفكر وطريق الإنسان للفكر . ويؤكد بعضهم أننا لا نستطيع التفكير بدون كلمات . فإذا قبلنا هذا التحديد — بأنها أداة للفكر — نكون قد فصلنا الفكر عن أداة التعبير عن الفكر ، وهذا مما لا يقبل به البعض .

وخل عنك هذه القضية الفلسفية البسيكولوجية ولنعد إلى صعيد أدنى ونسأل إذا قبلنا هذا التحديد ألا نكون قد عظمنا ملايين الناس الذين يتكلمون

ولكنهم لا يعبرون عن الفكر ، وألا نكون قد حققنا الفكر باعتبارنا كل
 أثره تعبيراً عن الفكر ؟ عندما يغضب أحداً ، أو عندما تنهال من فيه
 الشتائم والمسبات ، أو عندما يغنى ، أو عندما يحيى بعضنا بعضاً ، أو عندما
 نتكلم لأنفسنا ونحن سائرون في الطريق أو مستلقون على فراش ، هل في
 هذه المواقف والشبهات بها ، تعبير عن الفكر ؟ ثم إننا أحياناً نرغب في
 التعمية والتقويه والإخفاء وأداتنا في ذلك اللغة التي يقولون لنا إنها لنقل
 الفكر أو للتعبير عنه !!

لا نكران أن اللغة أداة للتعبير عن الفكر أحياناً . فالحاضر يعبر عن
 أفكاره بوساطة اللغة ، والمعلم في مدرسته ، والعالم في مختبره ، والنائب
 في برلمانه ، والصحافي في مكتبه ، هؤلاء جميعاً يعبرون عن الفكر باللغة
 ولكن حصر اللغة بأنها أداة للتعبير عن الفكر أمر بعيد عن الواقع

وكذلك قد تكون اللغة تعبيراً عن شعور وعاطفة . وقد يكون
 منشؤها العاطفة والشعور لا الفكر . اللغة للغناء ، للشعر ، للاقاصيص ،
 للأساطير ، للخرافات ، فهي بهجة ومنتعة ، وهي متنفس عن حزن وألم .

فاللغة إذن أكثر من مجموعة أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة
 للفكر أو تعبيراً عن عاطفة . اللغة جزء من كيانتنا البسيكولوجي الروحي
 وهي عملية فيزيائية إجتماعية ببيولوجية على غاية من التعقيد ، وتتناول
 أربعة أمور أساسية لتنام العملية المعقدة :

(١) متكلم

(ب) مخاطب .

(ج) أشياء أو فكر يتكلم عنها .

(د) كلمات أو مفردات (أو إشارات ملامحية أو يدوية) وهي مجموعة

فونيات لها في الذهن صور معينة ، أي معان .

ولإيضاح هذه العملية المعقدة نأخذ مثلاً بسيطاً لا يتبادر إلى أذهانتنا أنه على شيء من التعقيد . تصور رجلاً يمشى في حقل مع ولده الصغير . يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهى فيقول لوالده : « أقطف لى يا بابا تفاحة » . وقد ينزل الوالد عند طلب ولده فيتناول تفاحة وقد لا ينزل عند طلبه فيقول : لا . التفاح ليس لنا ، للتفاح أصحاب . فلنحلل هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية البسيكولوجية .

تبدأ العملية بالصور المرئية بعالم الأشياء المحيط بنا ، وهى العامل المؤثر فيشهى الولد التفاحة وتستحيل الصورة الذهنية إلى صورة كلامية تعبيرية : « أقطف لى يا بابا تفاحة » . كيف تحولت الصورة الذهنية إلى صورة صوتية تعبيرية ؟ أين كانت هذه الكلمات فى دماغ الولد ؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين النطق ؟ ماذا جرى ، وكيف تم ؟ ثم إن هذه الأصوات التى فاه بها الولد إنتقلت إلى أذن الأب بوساطة تموجات فى الهواء أولاً ثم إلى دماغه ثانياً . كيف ؟ ماذا كان رد الفعل ؟ كيف فهم المخاطبُ المخاطب ؟ ماذا دار فى دماغ الوالد عند سماع الفونيات ؟ وهل المعنى فى الصوت أم المعنى قائم فى الاختبار ؟ أى ما العلاقة بين الأصوات والمعنى ؟ وكيف توصل إلى حكم أولاً فى العقل ثم استحال الحكم إلى أصوات تعبيرية فقال له « نعم » أو « لا » . التفاح ليس لنا . ؟

هنا يتدخل البسيكولوجى ويقول : درس اللغة ليس من إختصاص علماء اللغة بل اللغة فرع من فروع علم البسيكولوجيا . اللغة « تصرف رمزى » Symbolic behaviour ولا تفسر إلا على أساس المؤثر ورد الفعل . هاتان العبارتان : « أقطف لى تفاحه » و « والتفاح ليس لنا » رد فعل بسيكولوجى ولا معنى لهاتين العبارتين إلا إذا فهمنا الظروف المحيطة بالوضع الذى نطق بهما . ثم أن البسيكولوجين أنفسهم ، إذا سلمنا أن درس اللغة من إختصاصهم يختلفون كثيراً فيما بينهم فى تفسير هذه الظواهر . فقد كان بعضهم إلى زمن قصير يعتقد بالتعليل النفسى أو الروحى ، أى أن هناك قوة روحية أو عقلية .

أو نفسية غير مادية تحرك الإنسان . ولكن جلهم الآن يعللون هذه الظواهر البسيكولوجية على أنها عمليات فيزيائية ميكانيكية : مَرْثَر ورد فعل وتلاؤم وتصرف رمزي .

ترون مما تقدم أن اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلب فهمها فهما صحيحا إثارة أسئلة خطيرة وعلى كثير من التعقيد والغموض . أما نحن فيهمنا من الأمر تقرير واقع : اللغة ظاهرة إجتماعية بـسيكولوجية مكتسبة ، (١) لـاصفة بيولوجية (٢) ملازمة للفرد . وتتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختبار معاني مقررة في الذهن . وهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تفاهم وتتفاعل . وباللغة فقط تطورت الحضارة وتقدم العمران وبلغ العقل الإنساني ذروته . فدرس اللغة درسا فلسفيا علميا درس في الإنسان وفكره . وهذا أمر هام بالنسبة إلينا نحن العرب فاللغة عندنا أداة مركبة من أصوات فـكلمات فـتراكيب بينما هي في الواقع جزء من كيانتنا العقلـالروحي . هي أكثر من أداة هي جزء من الحياة .

(١) إذا فصح طفل عن المجتمع فإنه لن يتكلم بل ينطق غير لغوية كسائر الحيوانات . وقد يكون لهذه الأصوات معان ولكنها ليست لغة . وكذلك إذا نشأ طفل في محيط غير محيطه فإنه يكتسب لغة القوم الذين يعيشهم .

(٢) إن أعضاء النطق كالـحلق واللسان والرئتين والحنجرة ، وغيرها كثير ، ليست للنطق أولا ، أي أن وظيفتها الأولى هي غير النطق بل لها وظائف جسمانية .

كيف نشأت اللغة ؟

لا نعلم على وجه التحقيق . أصل اللغة وثيق الاتصال بأصل الإنسان ذاته وبتطور جسمه وعقله . إذا قضية أصل اللغة ليست قضية لغوية بحتة ولا تدخل في نطاق علم اللغة (Linguistics) بل في نطاق البسيكولوجيا والأتروبولوجيا والفلسفة .

إن معرفتنا بتاريخ الإنسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الأخير ، ولكن رغم تقدم معارفنا في هذا الحقل فإن أصل الإنسان ونشأته من حيوان أبكم إلى حيوان ناطق ، من حيوان لا يعقل إلى حيوان عاقل ، لا يزال مكتنفاً بحجب من الأسرار ، ولكي نهتك هذه الحجب علينا أن نرجع إلى عهود سحيقة في القدم لا نعلم عنها شيئاً علماً يقينياً ، والعلم لا يعترف بشيء اسمه حدس أو خيال ، ولا يأخذ بشيء اسمه غيبيات ، إلا إذا كانت افتراضات قيد البرهان .

ولكن أصل الإنسان ونشأة لغته أمر يثير الخيال ويستأنف إلى العقل ونعتقد أن معرفة أصل اللغة من أقدم المشاكل الفكرية التي جابهت عقل الإنسان . فإن كاتب قصة الخليفة عزاه إلى الله . الله علم آدم الكلام . وقد انقسم العرب إلى قسمين إزاء هذه المشكلة^(١) .

فصالت جماعة إن اللغة توقيفية ، أى أن الله عليها الإنسان ، وقالت جماعه أنها اصطلاحية . وكان هم علماء اللغة ، منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى زمن قريب منا أن يتوصلوا إلى حل هذه المشكلة . ولكنهم كانوا يدورون في حلقة مفرغة . وكثر القول فيها إلى حد جعل الجمعية اللغوية الفرنسية

(١) ترى نموذجاً من هذا البحث في ابن جني (أبو الفتح عثمان) في كتابه « الخصائص »

« باب القول على أصل اللغة الهام هي أم اصطلاح » . ص ٣٩ (مطبعة الهلال بالنجدة ١٣٢١)
وعنه أخذ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي في « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » ص ١٧-٢٠ (دار أحياء الكتب العربية ، القاهرة) .

Societe de Linguistique تمنع بقانون إلقاء محاضرات في هذا الموضوع ، لأن هذه النظريات — وسنذكر لكم تتفا منها — لا تفسر أصل اللغة . وقد كانت الجمعية اللغوية على شيء من الحق في منع الموضوع ، لأنه ، كما ذكرنا آنفاً ، لا يدخل في نطاق علم اللغة بل هو أقرب إلى الحدس والخيال . يجب أن يُبحث عن أصل اللغة في نشوء التصرف أو السلوك الرمزي (Symbolic behaviour) ولكن من قبيل العلم بالشئ لا الأخذ به يحسن بنا أن نأتى على ذكر بعض هذه النظريات ، إن لم يكن لغرض سوى أن ندلل بأن اللغة تنشأ من أسفل وترتقى إلى أعلى ولا تهبط من عل إلى أسفل ، منها .

(١) نظرية البو — و bow waw^(١)

ومفادها أن أصل اللغة محاكاة أصوات طبيعية . وقد أشار العرب إلى هذه النظرية ، وبطريقة غير مباشرة ، عندما تكلموا في «حكاية صوت»^(٢) . وقد أدى إلى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة ، في كل لغة ، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والزقزقة والقهقهة والخفيف والخير والخشخشة والطقطقه . وإننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلاً في لفظة Cuckoe وهى اسم طائر سمي بالصوت الذي يحدثه . وقل هذا في لفظة «مو» فإنها تعنى في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة ، وظاهر أن التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع إلى أن الهرة سميت بالصوت الذي تحدثه . ولكن الكلمات التي يمكن أن تفسر على مبدأ نظرية البو — و و قليلة جداً . وفضلاً عن هذا فإن النظرية تعجز عن أن تفسر لنا كيف استغل مبدأ

(١) الكتب والمقالات التي تبحث أصل اللغة عديدة جداً نكتفي بذكر مقالين جامعين يلخصان للآراء التي لا يهيمه التبسيط في الموضوع أهم ما قدم من نظريات . المقال الأول تجده في: w. B, Pillsbury and C. L. Meader: The Psychology of Language, PP 112—128 (New York and London 1928),

والمقال الثاني Otto Jespersen Language, its nature Development and Origin, pp. 412—442 (Allen and Unwin, London 1922)

(٢) ويشير إليها ابن جني في كتابه الخصائص المذكور آنفاً في فصل يعنونه : (أحساس لألفاظ أشباه المعاني . ص ٥٤٤ . وعنه قل السيوطي في كتابه المزهر المذكور آنفاً ص ٤٨ .

« حكاية الصوت » ، في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها . ما العلاقة بين لفظه ابريق ومعناها ؟ وما العلاقة بين لفظه المنضدة ومعناها ؟ ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة أما العلاقة فبسيكولوجية ، أى من نوع قرن الأصوات بصور قائمة في العقل .

(ب) نظرية الأصوات التعجيبة العاطفية Interjections

وتعرف بنظرية Pooh — pooh . ومفادها أن الكلمات الأولى التي ننطق بها الإنسان كانت أصواتا تعجيبة عاطفية صادرة عن دهشة أو فرح أو وجع أو استغراب أو تفرز أو تأفف . ومثال هذا لفظه « تأفف » ، التي استعملناها نحن . عندما يتأفف الألماني يقول Pfui وعندما تتأفف نحن نقول « أف أو اوف » وعندما تتحسر أو تتلهف نقول « وى » ، وهي لفظه ترد في جميع اللغات السامية ، ويتبعها عادة حرف الجر « ل » ، فيقال « وى ل . . . » ، وعلى عمر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة « ويل » ، كما امتزج اسم الموصول « ما » مع حرف الجر « ل » ، فأصبح « مال » ، وفي الانكليزية القديمة لفظه تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظة « ويل » ، وهي la — wa إن ماقلناه عن النظرية الأولى ينطبق على النظرية هذه . لأنه إذا استطاعت نظرية كهذه أن تفسر بضعة ألفاظ فإنها تعجز عن تفسير ألوف من الألفاظ التي لا نرى كيف يمكن أن تكون في أساسها تعجيبة عاطفية أو مشتقة من عناصر تعجيبة عاطفية . ما علاقة لفظ الحب والبغض والولاء والفيل والحصان والإنسان بالأصوات التعجيبة العاطفية ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة .

(ج) نظرية Ding-dong

وواضعها ماكس ميلر اللغوى الشهير (١) ومفادها أن جرس الكلمة

(1) F, Max Mueller : lectures on the Science of Language, London: 1864,

يدل على معناها . وهى لا تختلف عن نظرية البو - وو . وقد أشار إليها العرب أيضاً بطريقة غير مباشرة عندما أشاروا إلى أن للحروف معاني (١) خرف الحاء يدل على الانبساط والسعة والراحة ، وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباع والحفاء والحزن كما فى غم وغيم وغبن ، وغطيطه ، . ولكن كيف نفسر لفظة غنى وغنج وغلان ؟

مما لا شك فيه أنك إذا نظرت فى كلمات عديدة يشترك فيها فونيم واحد تجد أن معانيها متقاربة . ولكن أن نرد معاني ألوف الألفاظ إلى ٣٠ أو ٣٥ فونيم أو وحدات صوتية فإننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد فى غموض المشكلة . إذ لك أن تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التى تمثلها الفونيمات القليلة التى تشكل النظام الصوتى للغة إلى معان لا حصر لها ؟ وهل المفردات العربية المدونة فى « لسان العرب » مشتقة من ٢٨ فونيم ؟ هذه النظرية لا تفسر أصل اللغة ، بل تزيدها تعقيداً .

(د) نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية :

وتعرف بنظرية Yo - he - ho وهى المقاطع الطبيعية التى يتفوه بها الإنسان عندما يستعمل أعضاء جسمه فى العمل اليدوى . فكأن هذه الأصوات التى نخرجها عفواً عند القيام بعمل عضلى عنيف تخفف شيئاً من حدة العمل . ومن هذا القبيل أغنية المجذفين على نهر الفولجا . وأنت إذا وقفت إلى جانب عامل يقطع صخراً أو شجرة ، أو إذا راقبت حداداً أو مجذفاً أو رجلاً يرفع حملاً فإنك تسمع أصواتاً ترافق حركته . وفى الحذاء وفى الرقص الإيقاعى تسمع أصواتاً تتلام والحركات الجسمية . ولكن هذه النظرية أيضاً تفسر جزءاً يسيراً من اللغة ، ويبقى السر العميق : كيف نشأت اللغة من هذه الأصوات العفوية التعبيرية التى ترافق حركات الجسم ؟ ما علاقة لفظ الأب والأم

(١) والافضل أن ينظر فى المقطع ، لا فى الحروف ، كما فعل الاب ١ . س . مرمجى فى كتابه : معجمات عربية — سامية (جوفية ١٩٥٠) والثنائية .

والحنان والجل والجمال وهذه الأصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية؟
ليس هناك من علاقة ظاهرة .

(٥) نظرية: الإشارات الصوتية :

والسر رتشار باجت (Paget) (١) نظرية جديدة لم تلاق قبولا .
ومفادها أن الكلمات هي إشارات صوتية (Verbal gestures) . يقول
باجت إن الإنسان القديم كان يتفاهم بالإشارة — الإشارة باليد والإشارة
بتقلص عضلات الوجه — ولكن عندما صار يستخدم يديه لأشياء أخرى
أصبح يشير إلى الأشياء بأصوات . وبما ساعد الإنسان على ترك الإشارة
اليدوية والملاحية والاستعاضة عنها بإشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلا .
ففي النهار يرى الإنسان صاحبه ويستطيع أن يقوم بإشارات يدوية ترى ،
ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام ؟ عندها بدأ الإنسان بالتعبير عن الأشياء
بأصوات ، وهذه الأصوات في الفم تحاكي الأشياء المعبر عنها . وتعرف
نظريته بنظرية ta — ta أى أنك عوضاً عن أن تشير إلى شيء بيدك تشير
إليه بلسانك فتقول ta — ta ويستطيع القارئ أن يرى لنفسه وجه التكلف
في هذه النظرية التي لا تفسر أصل اللغة ، ولكن حماس صاحبها دفعه لكتابة
كتاب ضخيم في الموضوع .

(٦) معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة :

عندما حلت رموز اللغات القديمة — السومرية ، البابلية ، المصرية ،
الحثية ، الكريتية — وعندما تعرف علماء اللغة إلى اللغات المتأخرة كلغات
الهنود الحمر والزنج وأهل أستراليا الأصليين ، نقول عند الكشف عن
هذه اللغات ظنوا وهما أن في دراسة هذه اللغات ما قد يحلوا الغموض الذي
يكتنف أصل اللغة . وسبب الوهم ظنهم أن هذه اللغات بدائية وقديمة ،

إذاً قد يكون فيها عناصر « طبق الأصل » للغة الإنسان القديمة . ولكن الواقع أن هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة ، بل حديثة بالنسبة إلى عمر اللغة . فقد أثبتت الدراسات الفيلولوجية لهذه اللغات أن وراء كل لغة منها تاريخاً مديداً لا يعلم له بدء ، وأنها ليست بدائية في صرفها ونحوها وأسايلها ، بل هي نتيجة تطور وتغير مستمرين . وقد وصلت إلينا هذه اللغات تامة التركيب وليس فيها ما يدل على بدائية . اللغة قديمة جداً . يظن أن الإنسان بدأ يتكلم منذ مئة ألف سنة ، وهذه اللغات ، وإن اعتبرناها وهما قديمة أو بدائية ، ورائها عشرات الألوف من السنين كانت فيها عرضة للتغير والتطور .

وقد وقع علماء اللغة في القرن التاسع عشر في وهم آخر فاضح ، وهوان اللغات التي اعتبروها قديمة أو بدائية بسيطة في تركيبها هي أقرب إلى الأصل على اعتبار أن البساطة منميزات اللغات القديمة البدائية .

كان أستاذنا ادورد ساپير (Sapir) ، أحد أعلام علم اللغة ، وأحد الثقافت في لغات الهنود الحمر ، يقص علينا الكثير من الطرائف عن لغات هنود أميركا . كان يؤكد لنا هذه النقطة : كلما رجعنا إلى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد وعدم منطق ، وكلما تقدمنا نحو الأعصر الأخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق . يقول إن في لغة قبيلة يانا (Yana) في كاليفورنيا نوعين من المفردات ونوعين من التركيب : واحد للنساء وآخر للرجال أي أن لفظة بيت تكون كلمة مغايرة في لغة النساء للفظه بيت في لغة الرجال . وهناك لغات لاتعرف لفظاً واحداً عاماً لفكرة عامة ، ولا تستطيع التجريد . فإنا نقول أكل خبزاً وأكل لحماً وأكل عنباً أما عندهم فلكل نوع من الأكل لفظ خاص به . فإن فعل « أكل » ، في « أكل عنباً » ، هو غيره في « أكل موزاً » . ولا يقف الأمر عند هذه الغرائب بل نجد أن الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل يأكل .

إن بقايا هذا التعقيد وبقايا عدم المنطق لا تزال ظاهرة في لغاتنا الحية .
خذ التأنيث مثلا ، فإن الإنسان القديم كان يؤنث المفردات بلفظ مغاير للفظ
المذكر في العربية نقول :

رجل : امرأة

خروف : نعجة

تيس : عنزة

حصان : فرس

أسد : لبؤة

ولكن بعد زمن بدأ التأنيث الصر في يجد مدخلا إلى اللغة وأصبحنا
نقول :

لطيف : لطيفة

كبير : كبيرة

مؤمن : مؤمنة

وإليك مثلا آخر على انعدام المنطق في اللغة : تذكير العدد مع المؤنث
وتأنيثه مع المذكر . نقول ثلاث نساء وثلاثة رجال . أين البساطة وأين
المنطق ؟ ولكن ماذا حدث على مر الأيام ؟ نقول اليوم « ثلاث نسوان
وثلاث رجال » .

نعود إلى نظرية معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة
البداية فنقول إن دراسة هذه اللغات أثبتت أولا أنها ليست قديمة جداً
كما توهمنا ، وليست بدائية كما أحييناها أن تكون ، فلم تسعفنا في الوصول
إلى معرفة الأصل ، بل إتينا لا تزال في الظلام .

(ز) دراسة لغة الأطفال :

وأخيراً ، بفضل تقدم العلوم التربوية والبنيكولوجية ، أتجه هم بعض

الباحثين في نشأة اللغة إلى دراسة لغة الطفل من مراقبة نمو أعضاء النطق وإخراج الأصوات وكيف تكتسب الأصوات معاني في الذهن . ولكن دراسة لغة الطفل لم تقدمنا خطوة نحو حل المشكلة : كيف نشأت اللغة . وذلك لأسباب عديدة منها أن الطفل لا يعيد تاريخ نشأة اللغة لأن اللغة مكتسبة لا وراثية . فإنه إذا فصل طفل هندي أو عربي أو ياباني عن محيطه في يومه الأول ووضع في محيط آخر كأن نضعه في برلين أو موسكو فإنه ينشأ لغة ألمانيا أو روسيا . ثم إن أعضاء النطق في الإنسان ليست أصلاً للنطق فإنه كان يوم لم تكن فيه لغة . وهذه الأعضاء التي نسميها أعضاء النطق هي لأغراض جسمية أولاً ثم للنطق ثانياً كاللسان والحنجرة وغيرها . هذه الأعضاء اكتسبت استعداداً أن تلين لعمليات النطق . أما هي في جوهرها فلاغراض جسمية أخرى . وأهم من هذا كله أن لغة الطفل ، وعلى وجه التدقيق الكلمات الأولى التي ينطق بها — لأن ما ينطق به لا ينطبق عليه اسم لغة — ليست أفعالا ولا أسماء ولا حروفاً ولا جملاً مركبة من مبتدأ وخبر إنما هي أصوات بدائية لأغراض كثيرة وللتعبير عن حالات كثيرة . فقد يحدث الطفل صوتاً يعني « أنا مزعج » هل من يريحي؟ وصوتاً آخر يعني : « أنا جائع » . وصوتاً آخر يعني « أنا أتألم من وجع » . نحن نسبغ على هذه الأصوات معاني والطفل بدوره قد يقرنها بمعاني وبحالات واستجابات ، ولكنه عندما يكبر يعمله المجتمع أن يقول : أنا جوعان ، أنا متألم ، أنا سعيد . الخ . فالمجتمع إذا يعطيه اللغة وهو يلعب دور المقلد لا المبتكر الخالق ، وإذا ابتكر أو خلق كلمات مثل كلمة « نني » في لبنان أو « أن كغ » فإننا لا نقبلها منه ونقول له قل « أكل » أو قل « أنا مبسوط » ، إذاً دراسة لغة الطفل لا تلتقي كثيراً من النور على السؤال الذي عنوانه الفصل : كيف نشأت اللغة ؟ وأنت ترى الآن لماذا لا يدخل عالم اللغة هذه القضية في عداد العلوم اللغوية بل يتركها لعلوم أخرى كالبيسيكولوجيا والاثروبولوجيا والميتولوجيا ، لأن اللغة لم تبدأ بالنطق والفكر إذ لم يكن هناك منطق أو فكر . علينا ،

أن نفقش عن نشأة اللغة في نشأة الأسطورة وتطورها إذ أن الأسطورة واللغة في مبدئها من نسيج واحد ودوافعهما الحياتية من معدن واحد^(١).

إذا كنا لا نعرف على وجه التدقيق كيف نشأت اللغة فإننا نعرف الكثير عن تطورها ، عن حياتها وموتها ، عن تجزئها إلى لهجات وتجزؤ اللهجات إلى لهجات . ولكن قبل أن نأتي على ذكر هذا أحب أن أقف عند قضية اللغة والعرق والعقلية ثم أتطرق لبحت علم حديث العهد له الفضل الأكبر في تغيير وجهة نظر الناس إلى اللغة ، أعنى علم اللغة Linguistics ، وبما يسر له كثيراً أن جمهورية مصر ، من بين الأقطار العربية ، أول من أدرك أهمية هذا الدرس فأوفدت الطلاب إلى بلاد الغرب ، وعندكم الآن نخبة فاضلة تعنى بهذا الدرس الجليل .

(١) من له رغبة في هذه النظرية الأخيرة عليه أن يراجع دراسة لعالم ألماني :

Ernest Cassirer : Sprache und Mythos (No, IV Studien der Bibliothek Warburg.)

اللغة والعرق والعقلية

وقد شغلت هذه القضية — اللغة والعرق والعقلية — بالعلماء اللغة في القرن التاسع عشر ، إذ حاولوا ، تحت تأثير علم الأنثروبولوجيا ، أن يجدوا علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة أو تلك . وحاولوا أن يجدوا في اللغة انعكاسا لليزات العرقية والأخلاق والمثل والنظرة إلى الحياة . والدراسات التي عُصِنَتْ بظوائع الشعوب ويميزاتها المبنية على اعتبارات لغوية صرفة كثيرة العدد . وجميعنا يذكر أرنست رينان وحكمه القاسمى على الشعوب السامية وعقليتها وصفاتها الخلقية بناء على درس العبرية بوجه خاص .^(١) وإنى أذكر قراءة مقال لعالم ألماني يبحث ألفاظاً مختلفة وما تعكسه من صور ذهنية تعكس بدورها عقلية الشعب الذي يتكلم تلك اللغة ، ومن جملة لفظة Interessant رغم أن هذه اللفظة الغريبة لا يمكن أن تنقل إلى لغة سامية ، وإذا نقلت فإنها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغريبة . ويعزو هذا العجز بين وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة Interessant إلى طبيعة العقل السامى الذى ينقصه الشغف العقلى والمذلة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغريبة . إذاً لا يمكن الشعب السامى أن يكون قد أسهم فى خلق العلم والفلسفة والفن ، لأن أساس العلم والفلسفة والفن المذلة العقلية ، الشغف الروحى ، والرغبة الملحة فى استجلاء غوامض الكون .

وكان من حرصهم على هذه الدراسات أنهم حاولوا تصنيفها إلى عائلات والنظر فى خصائص كل منها . وقد صنفوا اللغات المعروفة إلى ثلاث عائلات كبرى :

(١) الفاصلة Isolating

(١) راجع رد تيودور تولدكه عليه فى مقاله الرابع . « اللغات السامية » الذى ترجم خصيصاً لدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان Scmetic language الطبعة الثالثة عشرة .

(ب) اللاصقة Agglutinative

(ح) المتصرفة Flexional

فالفاصلة هي اللغة التي لا يتغير فيها شكل الكلمة (أو الجذر) إن وقع في التركيب . أما العلاقة الصرفية والنحوية بين كلمة وأخرى في الجملة فتوقف على موقع الكلمة في الجملة لا على تصريفها أو حالاتها الإعرابية . واللغة الصينية هي من هذا النوع . فإن الضمير «أنا» لا يتغير شكله ، كما هي الحال في لغتنا العربية ، تبعا للحالات الإعرابية والصرفية بل يظل على شكله الأول إنما يتغير مركزه في الجملة . وهذا التغير في مركز الكلمة يدل على الحالة الإعرابية أو على الوظيفة النحوية التي تقوم بها الكلمة . وإيضاحا للسألة نقول إن في لغتنا العربية يتغير الضمير «أنا» إلى «ت» ، في مثل «أكلت» ، ويتغير إلى «ن» ، في مثل «أحبني» ، ويتغير إلى «ي» ، في مثل «كتاني» ، وإذا أكدناه قلنا «إيأى» ، أما في الصينية فيقال : «كتاب أنا» ، «كتب أنا» ، «أحب أنا» ، وفي حالة التأكيد «أنا أنا» .

واللغة الإنكليزية تحتفظ بعناصر من العائلات اللغوية الثلاث . فهي فاصلة ولاصقة ومتصرفة . ومثال على ميزتها الأولى (فاصلة) هذه الكلمات الخمس التالية : I know, what, you mean, I . فإنك تستطيع أن تركب منها عبارات عديدة ولكل عبارة معنى يختلف عن معنى الأولى . ولكن تبقى هذه الكلمات على شكلها . إنما يتغير موقعها في الجملة :

What You mean I know

I know what you mean

You know what I mean

What I mean you know . . . الخ

أما اللغات اللاصقة فهي التي لا يتغير فيها الجذر إنما نستطيع أن نلصق به ، في أوله أو في آخره ، عناصر أخرى لخلق معان مختلفة . والتركية هي من هذا النوع ، وكذلك الإنكليزية فإننا نقول :

reason, reasonable, reasonably, unreasonable, unreasonableness
 وفى جميعها لم يتغير شكل الجذر الأصلى : reason .

أما اللغات المتصرفة فهى التى يتغير فيها الجذر أو تتغير حركته ، وقد يمتزج بعناصر أخرى ، أو عناصر أخرى تمتزج به فى أوله ووسطه وآخره ، وفى جميع هذه التغيرات يختلف المعنى . وأحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية مثل كَتَبَ كُتِبَ كَاتِب مَكْتُوب استكتب الخ وقد عدوا هذا النوع من اللغات المتصرفة أرقى اللغات — ربما لأن اللغات الأوروبية متصرفة ! — وحسبوا أن أدنى اللغات هى الفاصلة ، واللغات اللاصقة هى وسط بين الطرفين . وقد قرنوا الأولى ، اللغة الفاصلة ، بالمجتمع الحضارى البدائى القائم على وحدة العائلة ، وقرنوا اللغة الثانية ، الفاصلة ، بطور البداوة ، وقرنوا الأخيرة ، المتصرفة ، بالحضارة الحالية الراقية .

بما لا شك فيه أن كثيراً من مفردات اللغة تعكس إلى حد بعيد محيط الإنسان الطبيعى ، وإلى حد محدود بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية فالعربية مثلاً قد احتفظت بطابعها الصحراوى ، وأثر الصحراء والعيش الصحراوى القبلى الرحلى يبدو جلياً فى كثير من مفرداتها فى لغتنا اليوم . ولكن يجب ألا نستمرسل فى الاستنتاج المبني على نوعية التركيب اللغوى . فإن علباء اللغة اليوم لا يجدون أن التركيب اللغوى يعكس مزايا خاصة أو أنه يدل على طبائع معينة أو أخلاق ومثل العليا أو دنيا . خذ مثلاً التركيب اللغوى الذى يدل على الملكية (وهو فى علم النحو الإضافة) فحن العرب نعبر عن ملكية خالد للكتاب بقولنا : « كتابُ خالد » وعندما يسمع العربى هذه العبارة يفهم طبيعة العلاقة بين الكتاب المحكى عنه وخالد . والإنكليزى

يعبر عنها بقوله : Khalid's book أو The book of Khalid

ويعبر عنها الألمانى بقوله : Der Buch des Khalids

ويعبر عنها الفرنسى بقوله : Le livre de Khalid

وأنت ترى أن الغاية قد تمت فى جميع هذه اللغات ، وهى إظهار علاقة

الكتاب بحالده ، ولا اعتبار للشكل الذى لجأ إليه العربى أو الإنكليزى أو الألمانى أو الإفرنسى للتعبير عن الفكرة . ولا مبرر للقول بأن التركيب العربى أحسن من التركيب الألمانى أو أن التركيب الألمانى يعكس عبقرية لا نجد لها فى التركيب الإنكليزى . جميعهم أرادوا التعبير عن شىء واحد وجميعهم نجحوا فى التعبير عنه بطريقة فعالة مفهومة عند الناس الذين يتكلمون هذه اللغات المختلفة ، إذأ اللغة نتيجة لا سبب ، وأن نعزو إلى التركيب خصائص عقلية وروحية وأخلاقية فأمر مبالغ فيه جداً . وعلماء اللغة اليوم لا يثقون بهذه الاستنتاجات اللغوية ، لا بل يخطئون الذين يحاولون أن يروا فى اللغة وتركيبها انعكاساً للعقلية والأخلاق . فإن فى لغات بعض القبائل المتأخرة فى الحضارة تراكيب عجيبة ومقدرة على التعبير ببسر وكفاءة تفوق أحياناً اللغة الألمانية .

والخلاصة يجب أن نفرق بين لغة وعرق وحضارة . فهام زنوج أميركا يتكلمون الإنكليزية ولا يعرفون لغة غيرها . والهنود الحمر الذين هجروا مواطنهم وانخرطوا فى الحياة الأميركية لا يعرفون لغة غير الإنكليزية . ولو كان للغة خصائص عرقية معينة لا تلائم إلا عرقاً خاصاً أو عقلية خاصة أو حضارة خاصة لما وجدنا أن اللغة الواحدة قد تكون مشاعاً لأعراق عديدة وأداة لحضارات مختلفة .

ليس هناك من لغة لها عبقرية تفوق اللغات الأخرى ، وليس هناك من عرق صاف خالق لغة خاصة تعكس عقليته . وكل ادعاء بأن هذه اللغة وتلك أحسن اللغات وأفصح اللغات وأغنى اللغات وأشرف اللغات هو من باب المباهاة . اللغة شىء والحضارة شىء آخر ، واللغة شىء والعرق شىء آخر ويجب ألا نخلط بينها .

علم اللغة

(Linguistics)

ليس علم اللغة بمفهومه الحديث درس الصرف والنحو والبيان كما يدرس في المدارس الثانوية والمدارس العليا . هذا الدرس هو الجزء الميكانيكي من علم اللغة . ولا يعنى علم اللغة بلغة واحدة بل يدرس اللغة بصورة عامة على أنها ظاهرة إنسانية اجتماعية ببيكولوجية ، أو هو جزء من درس المواصلات . وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهنا للغوى والفلسفى لأنه علم له أوثق العلاقات بالفكر : الفلسفة والدين والأدب والعلم والفن . وبعبارة أخرى اللغة أساس جميع العلوم الإنسانية ، وهى طريق الإنسان لفهم الكون والحياة .

وقد يسأل أحدنا : هل تخضع اللغة للعلم ، للعلم التجريبي التطبيقي كما تخضع له عناصر الطبيعة القابلة للكم وللكيف ؟ والجواب عن هذا هو أن علماء اللغة في الربع القرن الأخير حاولوا مخلصين إخضاع اللغة للعلم وقوانينه كما حاول ، ويحاول ، علماء الاجتماع إخضاع الظواهر الاجتماعية للعلم . وذلك لأن اللغة ظاهرة بيولوجية اجتماعية ببيكولوجية ، والأسلوب العلمى يطبق فى هذه العلوم جميعها فما الذى يمنع من تطبيق الأسلوب العلمى على اللغة على أساس أنها شىء يوصف ويحد وبقيد ويخضع للمختبر ؟

قد يعترض أحدنا : أن اللغة ظاهرة اجتماعية لاتلن لأحكام العلم الصارمة لأنها فى جريان أو اندفاع مستمر (Continuous flux) وفى تغير دائم . وكل ظاهرة حية متطورة متغيرة تأبى التقييد . إنما نحن نقيد جميع ظواهر الكون عند استقرارها وثبوتها ، وفى هذا الاعتراض شىء من الصحة ، ولذا يقول علماء اللغة اليوم إن وظيفة عالم اللغة هى فى المرتبة الأولى الوصف (description) . فإنهم ينظرون إلى اللغة على أنها لغة الساعة التى يصفونها بها ، أو على أنها لغة القرن الرابع أو الخامس أو التاسع عشر . وهذا الوصف الدقيق للغة فى نقطة معينة من الزمان والمكان هو العلم ذاته .

ما هو هذا الأسلوب العلمى الذى أكثرنا الكلام عنه ؟ إن هذا الأسلوب يتطلب قبل كل شىء موضوعية (Objectivity) أى تجرداً عن الذاتية ، تجرداً عن كل غرض وهوى وسابق معرفة ، والبداً بالملاحظة والمراقبة وتدريب هذه الملاحظات . وبعد أن يتجمع لدى الدارس مقدار كاف من المعطيات (data) يضع نظرية مؤقتة يظن أنها تستطيع تفسير هذه الظواهر التى لاحظها ودونها . ثم إنه فى الطور الثانى يتقدم لامتحان هذه النظرية ليرى إذا كانت شاملة تعلق جميع هذه الظواهر . وهنا يثار فى التجريب والاختبار حتى يتأكد من صحتها . وكثيراً ما يرى أن عليه أن يعيد النظر فى صحة هذه النظرية . ولكن إذا تبين له أنها تستطيع أن تعلق جميع هذه الظواهر فإنه يعلنها قانوناً أو قاعدة علمية . وقد طبق هذا الأسلوب فى العلوم الطبيعية أولاً وكان من نتائجه هذه الاكتشافات العلمية الباهرة التى دفعت بالإنسان صعوداً فى الحضارة الآلية ، وفى سعيه الخيىث للوصول إلى حياة أفضل مادياً وروحياً . هذا الأسلوب العلمى يطبق الآن فى درس اللغة . وقد مرّ علم اللغة فى أطوار عديدة . وليس لنا أن نؤرخ له إنما ننتقل بكم إلى القرن العشرين . الذى يحق لنا أن نسميه فى تاريخ علم اللغة بالقرن الوصفى descriptive لأنه لا يعنى بالناحية التطورية التاريخية ولا يعنى بالناحية البسيكولوجية الفلسفية كما كانت عليه الحال فى القرنين السابقين بل تتركز الجهود فى وصف اللغة وصفاً علمياً دقيقاً سواء أكان ذلك من جهة الصوت Phonology أو من جهة الشكل Morphology أو من جهة التركيب Syntax وتمثل مدرسة لندن ، قسم الفونتيك وعلم اللغة ، هذا الاتجاه أحسن تمثيل . فإنك إذا كنت طالباً فى هذه المدرسة وشاقت أن تعرف السبب لماذا ، وكيف ، ولأية غاية حدث هذا فى تاريخ اللغة ، ومتى حدث ، لأجابه الأستاذ بقوله نحن هنا لسنا فى دائرة التاريخ ! لايهمنا « لماذا ؟ » ، ولا نغنى بالأسباب والعلل لأننا لانعرف الأسباب والعلل . لماذا رفعوا الفاعل ونصبوا المفعول به ولم يعكسوا الأمر فنصبوا الفاعل ورفعوا المفعول . ولو أنهم فعلوا هذا

لقبلنا المنطق ذاته . يهمننا تقرير الواقع . اللغة في نظرنا هي اللغة الحاضرة . لغة الساعة التي أنت فيها ، وعملنا هو أن نصف هذه اللغة على مراتب^(١) : مرتبة الصوت ، ومرتبة التركيب ، ومرتبة المعنى ، وغيرها من المراتب . وعندما يتم وصف اللغة ، ومتى تجمعت لدينا جميع المعلومات الأساسية عندها يحق لنا أن نعمم ، أو أن نشير إلى الاتجاه ، أو أن ننظر إلى التاريخ ، أو أن نتلفت إلى المستقبل . نحن لا ندرس اللغة درساً حدسياً بل واقعياً .

ما هو علم اللغة وما هي مادته ؟ إن علم اللغة من العلوم الحديثة التي لم تستقر بعد ولم تتخذ شكلاً معيناً محدداً كما هي الحال في بقية العلوم . وقد مر هذا العلم في طورين . ففي الطور الأول كانت مواد هذا العلم تنحصر في :

(أ) علم اللغة العام General linguistics .

(ب) علم المقابلات اللغوية Comparative philology .

(ح) درس التطور الصرفي والنحوي Historic grammar .

أما في الطور الثاني فقد اشتمل هذا العلم إلى جانب ما ذكرنا حقولاً أخرى :

(أ) الحقل الفيزيائي — البيولوجي .

(ب) الحقل البسيكولوجي — الفلسفي .

(ح) الحقل اللغوي الصرف من جهة وصفية بحثة لا من جهة فلسفية .

أما علم اللغة العام general linguistics فيعني باللغة إطلاقاً ، أي أنه لا يحدده في درس لغة واحدة بل يتناول اللغة كظاهرة إنسانية اجتماعية ، فيدرس نواحيها العامة من صوت وتركيب وأسلوب ، ثم ينظر في تطورها

(١) « مرتبة » ترجمة اللفظ الغريية level . فإنك إذا نظرت في الأصوات التي تتركب منها اللفظة فإن دراستك لها تكون على مرتبة الصوت ، On phonological level وإذا نظرت في مقاطعها فإنك تعني بمرتبة التركيب المقطعي Syllabic structure وإذا نظرت في الصرف فإنك تدرس اللغة على مرتبة الشكل والبناء Morphological Level . . الخ

ونموها وانحلالها إلى لهجات ، وينظر في أثرها في المجتمع . أما علم المقابلات اللغوية Comparative philology فيعنى بمقابلة لغة بأخرى للوقوف على المشترك وعلى المختلف بينهما . ويدرس التطور الصرفي والنحوي كما يظهر في مقابلة صرف لغة بصرف لغة أخرى . ويحاول أن يجد في هذه المقابلات ما يلقي النور على الأسباب والعلل . وأما درس التطور الصرفي والنحوي historical grammar فيعنى بدراسة صرف ونحو لغة ما دراسة تاريخية . وقد ينظر أحياناً في الصرف الحى living grammar أى صرف اللهجات ونحوها على ما يجد فيه ما يفسر ما غمض في دراسته التاريخية . أما علم اللغة في الفترة الأخيرة فقد تناول ، كما أشرنا ، حقولاً ثلاثة نحب أن نقف عند كل منها قليلاً لنعرض على القارئ العربى أسلوب الدراسة الغربيه الحديثة للغة .

الفصل الفيزيائى — الببولوجى :

وهذه الدراسة تعنى بالأصوات اللغوية من ناحيتها الجسمانية (الفيزيولوجية) والفيزيائية (Physics) فإن الصوت مجرى هوائى يبدأ فى الرئتين ، إلى الحنجرة ، إلى الفم ، إلى مخرج الفم . ولكن هذا المجرى الهوائى فى مسيره من الرئة إلى الشفة يتكيف ويتحور ويتغير تبعاً لما يعترض سيره من حواجز وعقبات تضعها فى سيره كل من الأوتار الصوتية ، فمؤخر الحنك ، فاللسان فالأسنان ، فالشفتان . وتستطيع أن تدرك هذا لنفسك إذا قارنت بين التنفس العادى والنطق بأصوات لغوية . فإنك إذا دفعت بالهواء من رئتك فاتحاً فمك ومانعاً الأوتار الصوتية ، ومؤخر الحنك واللسان والشفتين من أن تعترض المجرى الهوائى فلا يحدث فى هذه الحالة صوت لغوى ، بل يحدث مانسيه تنفساً عادياً . ولكن هذا المجرى الهوائى ذاته إذا اعترضه معترض تغير وتحور . وعندما نقول أن فى اللغة الفلانية ٢٨ أو ٢٩ صوتاً لغوياً فإننا نعنى علباً أن المجرى الهوائى من الرئة إلى الشفتين يتحور ويتغير إلى ٢٨ أو ٢٩ صوتاً مختلفاً .

ويلاحظ القارىء أن الحقل الفيزيائى - البيولوجى يتناول الأصوات اللغوية من ناحيتين : فيزيولوجية جسمية وتعنى بعملية التنفس ووصف أعضاء النطق ، الحنجرة والأوتار الصوتية ومؤخر الحنك واللهاة والأنف واللسان والشفيتين وكل عضو آخر قد يشترك بعملية النطق . وفيزيائية وتعنى بطبيعة الصوت (Acoustics) ودرس الأصوات اللغوية من هذه الناحية يعرف بعلم الفونتيك (Phonetics) وهو من الدروس التى تفرض فرضاً على كل من أراد التخصص فى علم اللغة ، لأنه درس أساسى . وكما أن الطبيب لا يمكنه أن يصبح طبيباً إذا لم يكن قد اتقن أولاً درس الفيزيولوجيا ، هكذا طالب علم اللغة لا يستطيع تحليل كثير من الظواهر اللغوية كالإعلال والأدغام والإشتمام والإمالة والتفخيم والاختلاس والتلين وانحلال النظام الصوتى ونشوء اللهجات إذا لم يكن له معرفة بطبيعة هذه الأصوات وبالنواميس التى تتحكم فيها .

وليس لطالب علم اللغة أن يكون فيزيولوجياً يتخصص فى دراسة الجسم كله ، وليس له أن يكون عالماً فيزيائياً . إنما طبيعة اللغة وطريقة النطق بها تتطلب معرفة عامة لفيزيولوجية الصوت وفيزيائيته . وقد أنشأت الجامعات الكبرى دوائر خاصة لعلم الفونتيك لها أساتذتها ومختبراتها ومكاتبها . وإذا قيس لك أن تزور إحدى هذه الجامعات وجدت أن مختبر الفونتيك بالآلة المصورة والمسجلة وأشعة اكس لا يقل تعقيداً وأهمية عن مختبر الفيزياء . إن دراسة الصوت من ناحيته الفيزيولوجية والفيزيائية تعتبر فى علم اللغة مقدمة له (Prelinguistics) مقابلة له باللغة ذاتها من حيث هى أصوات تقرر بمعان (Linguistics) ومقابلة لهذين الحقلين بما يسمونه الآن (Meta-linguistics) أى ما وراء الظاهرة الطبيعية للغة ، أى علاقة اللغة بالفكر والآداب والفلسفة .

الحفل البسيكولوجى — الفلسفى

وقد ألمعنا إلى أهمية هذا الدرس ، درس بيسيكولوجية اللغة ، عندما بحثنا « ما هى اللغة ؟ » ، وقد مثلنا للقارىء بحادثة الولد الذى طلب إلى أبيه اقتطاف تفاحة له ، وماذا دار بينهما من كلام . وقلنا إن عملية التكلم ، على بساطتها الظاهرة ، عملية معقدة جدا تتناول الصور الذهنية التى يسببها تأثرنا بالعالم الخارجى ، والكيفية التى بها تتغير هذه الصور الذهنية إلى صور صوتية تعبيرية . (Verbal symbolism) وقد سألنا أسئلة عدة عما يجرى فى الدماغ وكيف يجرى ، وكيف تحضر المتكلم المفردات ، وكيف يكون لهذه المفردات معان مقرررة فى الذهن ، وما العلاقة بين اللغة والفكر .

وهناك مشاكل بيسيكولوجية فلسفية أخرى لها علاقة وثيقة باللغة . ما هى أقسام الكلمة ؟ أتعلم أن علماء اللغة ليسو على رأى واحد بل تختلف أجوبتهم عن هذا السؤال كثيرا (من ٢ إلى ٣ إلى ٧ إلى ١٧) . ثم ما هو تحديد الفعل ؟ ما هو الاسم ؟ ما هو الحرف ؟ وهل التعاريف القديمة صحيحة دقيقة ؟ وما هى وحدة الكلام ، الكلمة أم الجملة ؟ وما هى الجملة ؟ هل صحيح أن الجملة هى المؤلفة من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل ؟ وما قولك بجواب مفيد مثل « نعم » جوابا لمن يسألك : هل هذا هو المطعم الذى سنأكل فيه ؟ وقد لا نقول « نعم » بل نكتفى بإشارة بالرأس أو التغيير فى الملامح أو بنوع من النحنية « التى تفيد ما تفيده لفظة نعم . فهل هذه من اللغة ؟ هل « نعم » جملة مفيدة ؟ البيسيكولوجى يقول نعم هى رد الفعل لمؤثر خارجى . وهناك قضية المعنى (meaning) وكيف يتكون فى الذهن وكيف يقرن بمجموعات معينة من الفونيمات . ثم هناك قضية الفلسفة والمنطق ، هل تصلح اللغة أن تكون أداة لهما أم أنها تعوق التفكير الفلسفى لأنها ظاهرة قديمة نشأت عندما لم يكن هناك فلسفة ؟ وأخيرا ، وهذا أعقد المسائل اللغوية ، هل هناك فكر مجرد أى هل هناك فكر أو تفكير بدون كلمات ؟ جرب أن تفكر واسأل نفسك : هل أستطيع أن أفكر وأن أدرك الأمور دون كلمات ؟

إن هذه القضايا على غاية من التعقيد والغموض . وإذا أنت راجعت فهرس المكتبة اللغوية (أى الكتب التى تبحث علم اللغة) لوجدت العديد من المجلدات الضخمة الموزعة بين حقول الفلسفة واللغة والبيسيكولوجيا والتربية التى تبحث هذه القضايا . ولكننا نحن لا نغيرها شيئاً من اهتمامنا . وعلماء اللغة يحاولون أن يجدوا لهذه الأسئلة أجوبة مقنعة . وتراهم فى شبه تنافس على مع البيسيكولوجيين الذين يقولون أن اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية فلسفية ، إذاً عليها يقع فى علم البيسيكولوجيا . يقول علماء البيسيكولوجيا لعلماء اللغة لقد حاولتم فى القرون الثلاثة الأخيرة أن تحلوا مشاكل اللغة ولم تفعلوها فتركوها لنا الآن^(١) .

الحقل اللغوى الصرف

ومن الناس من ينصرف إلى درس لغة ما دراسة وصفية تقريرية دون النظر إلى الملاحظات الاجتماعية والفلسفية والبيسيكولوجية . فيحصر همه فى وصف أصوات اللغة وأحكام التركيب ووضع المعجم (نعنى مفردات اللغة) . حسب أسلوب على دقيق .

يفرق دارس اللغة بين « لغة قديمة » ، « ولغة حية » . فالقديمة هى التى وصلتنا من نقطة معينة فى الزمن حسب نماذج مدونة . واعتمادنا فى هذه الدراسة التقليد (Tradition) وأحسن مثال على هذا النوع من الدراسة العبرية كما تدرس فى الجامعات ، أو السنسكريتية كما كان ينطق بها البراهمة فى الألف الأول قبل المسيح . والعيب فى هذه الدراسات ، فى نظر عالم اللغة ، هو أنها لا تعتمد النطق بل الكتابة والكتابة غير النطق . الكتابة رمز للنطق ، أما النطق الصحيح والتركيب الصحيح هو الشائع على ألسنة الناس لا المدون فى الكتب . ولكن هذا لا يعنى إهمال درس اللغات القديمة أو الالتقاط من

(١) من هذا القليل كتاب الاستاذ كاتور . J. B. Kantor . An Objective Psychology of Grammar, Bloomington 1٩36.

قيمتها ، كلا إنما اللغة في نظر عالم اللغة هي اللغة كما وصلت إلينا في اليوم الذي فيه ندرس تلك اللغة . اللغة الحية هي لغة الناس .

وإذا فرق عالم اللغة بين قديمة وحديثة فإنه لا يُفرّق في أسلوب الدراسة . وهذا الأسلوب ، الذي تمثله مدرسة لندن أحسن تمثيل ، يعتمد أولاً تسجيل اللغة واللهجة المنوى درسها . فيؤتى بأناس يعتقد عالم اللغة أنهم خير ممثلين لتلك اللغة فيقرأون أو يقصون أو يتحدثون عن أمر ما على رسلهم وبطريقة طبيعية . وفائدة التسجيل هو أن الباحث يستطيع أن يردد على مسمعه لغة المسجلين مراراً وتكراراً وفي أوقات تحلو له . ثم يبدأ بدرس المدوّن حسب ما اصطالحوا عليه بالمراتب (levels) فهناك المرتبة الصوتية (Phonological level) أي ضبط دقيق لنظام الأصوات اللغوية واختلاف النطق بالأحرف المصوّّنة ، وتسجيل أثر حرف في آخر ، وما إلى هذا العلم من قبيل (وهذا جزء من فونتيك اللغة) ثم يتلو هذه المرحلة درس شكل الكلمات وصوغها وتصريفها ويعرف بالمرتبة الصرفية level Morphological أي علم الصرف حسب مصطلحنا ثم يتناول التركيب ، والتركيب جوهر اللغة كما قلنا سابقاً . ونعرف هذه المرتبة بالمرتبة التركيبية Syntactical level . ثم يأخذ بدرس معجمية اللغة Lexical level وهناك مرتبة أخيرة Semantic level أي المرتبة المعنوية التي تعنى بالمعنى وتطوره .

وتجدر بنا الإشارة إلى هذا العلم عند العرب فإنهم كالجنود والإغريق برزوا في هذا الحقل وذلك لمقام القرآن الكريم في حياتهم الدينية والاجتماعية ولكن ، وهذا بما يؤسف له ، لم يعتبر لغويو العرب اللهجات ، ولم ينظروا إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية حية نامية متطورة بل اقتصر جهودهم على درس وتدوين لهجة معينة في الزمان والمكان وحرصوا على ضبط أحكامها وقواعدها لكي لا يحد التغيير إليها سبيلاً . ولكن اللغة لا تعرف التحديد ولا تقبل الجمود ، بل اللغة سيل جار (Continuous flux) .

أثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوى

لعلم اللغة الحديث كما وصفناه لك باقتضاب كلى فى الفصل السابق ، أثر عميق فى تغيير نظرنا إلى اللغة ووظيفتها وأثرها فى الفرد . ويحسن بنا ، إيضاحاً للأمر وإيجازاً فى البحث ، أن نذكر على شكل نقاط أهم النتائج التى أسفر عنها هذا العلم ، والتى كان لها نصيب فى تغيير نظرنا التقليديّة القديمة :

(أ) ليس هناك لغة أفضل من لغة .

(ب) اللغة مجرى .

(ح) لا اعتبار للكتابة وقواعدها فى علم اللغة إنما الاعتبار للفظ .

(د) اللغة أكثر من فونيمات .

(هـ) ليس اللغة كيان بدون الإنسان .

(١) ليس هناك لغة أفضل من لغة :

لقد أثبت علم اللغة الحديث أن اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع إنسانى . وهى ظاهرة إنسانية لا علاقة لها بالآلة ، ولم تهبط من عل ، بل نشأت من أسفل ، وتطورت بتطور الإنسان ذاته ، ونمت بنمو حضارته . وليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لغة وأخرى ، كأن يقول أحدنا أن فى الألمانية عبقرية لا تجددها فى الافرنسية ، وفى الافرنسية مقدرة على التعبير لا نجددها فى التركية . لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع . وليست القضية قضية لغة أفضل من لغة بل قضية حضارة وحياة أغنى من حياة .

وكذلك لا مفاضلة فى أصوات اللغة كأن يقول أحدنا إن فى الإيطالية أصواتاً أعذب موسيقى من أصوات العربية . فالذى نعهده نحن البيض عذوبة

في الصوت قد يعده الهندي الأحمر قبحاً وخشونة ، وما نحسبه بياناً وفصاحة قد يرى فيه الزنجي غموضاً وتعقيداً .

ولا مبرر للقول بأن مفردات لغة ما أكثر عدداً من مفردات لغة أخرى . إذ قد يكون عندنا ، نحن البيض ، للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر بها عنها ، بينما نجد أن الصفر أو الحمر أو السود من البشر لا يشعرون بأن هذه الصورة الذهنية تحتاج إلى لفظة خاصة ، بل قد يعبرون عنها بطريقة أخرى مخالفة ولكن فعالة . وقضية المفردات لا تدخل في صميم اللغة . فنحن نباهي مثلاً أن للشئ الواحد عندنا أسماء عديدة ، ولل فعل الواحد أفعالا عديدة ، ولكن غيرنا يرى في ذلك إسرافاً . والمفردات تهرم وتموت ويحل محلها مفردات أخرى . وقد تقتبس اللغة مفردات حضارة أخرى أرقى . وهنا نكرر القول أن القضية ليست قضية مفردات بل قضية شعب راق أو شعب متأخر ، وعند ما يرتقي الشعب وتبهر أفراده المجتمع من قيود الرجعية والتقليد تستطيع كل لغة أن تسير الحضارة بلسانها الخاص . قد يجد المجتمع نفسه مضطراً للتوليد والترجمة والاقتباس ، ولكن هذا لا يضر اللغة بل يزيد ما غنى .

(ب) اللغة المجرى :

لكل لغة مجرى تجري فيه حتماً . وهذا المجرى يتشعب إلى مجار أخرى مختلفة . وكما بعد المجرى عن نقعة الانطلاق ازداد التباين والتغاير . فمن عامة الناس يصدق أن الأرمنية والإيرانية والروسية والألمانية والإيرلندية واليونانية واللاتينية والإنكليزية على ما بينها من تباين واختلاف ظاهرين في المفردات والصرف والنحو والأصوات وأساليب التعبير ، نقول من من الناس يصدق أن هذه اللغات تمثل مجارى متشعبة من مجرى واحد ؟ وقل مثل هذا في اللغات السامية ، فإن العربية والعبرية والبابلية والفينيقية والمريانية والحيثية تمثل مجارى متشعبة من مجرى واحد .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل إن هذه المجارى تشعب بدورها إلى مجاز جديدة . فمن اللاتينية تحدرت لغات حية هي الفرنسية والإيطالية والأسبانية ، وهذه بدورها ستفرسح إلى لهجات متعددة يموت بعضها بانحلال المجتمع ويعيش بعضها الآخر بتناسك ونموه .

فاللغة تشبه تلك الشجرة التي تتدلى فروعها إلى أسفل فلامس التربة وترسل في الأرض جذوراً تصبح أشجاراً فتية فيما بعد . وقد تموت الشجرة الأم ولكن من فروعها تنشأ أشجار جديدة .

وإذا قلنا إن اللغة تموت ، فإنما نقصد بالموت التغير الكلى الذى يطرأ على المجتمع ، والتبدل الجذرى فى الحياة وفى الظروف المحيطة بالحياة إلى حد نستطيع فيه القول إن لغة اليوم هى مغايرة للغة أمس .

(ح) - اعتبار للكتابة وقواعدها فى اللغة ، إنما الاعتبار للنطق :

ليست الكتابة من جوهر اللغة . اللغة أقدم من الكتابة ، والكتابة عرض . اللغة مجموعة أصوات لغوية ، والكتابة رموز لهذه الأصوات شأنها فى ذلك شأن رموز قصعة موسيقية .

الرموز الموسيقية ليست الموسيق . وقد تكون رموز الكتابة حروفاً لاتينية أو عربية أو هندسية شكلها أجل من شكل الحروف الحاضرة ، وقد نرمز إلى القوائم N بشكله اللاتينى N أو بصورته الكتابية فى اللغة الصينية لا فرق فى ذلك كله على شرط أن يكون لهذه الرموز المختلفة قيمة صوتية مصلاح عليها .

ونمثل لك على صحة هذا — من أن الكتابة عرض والنطق جوهر — بمثال من لغتنا العربية . فمن المقرر المعروف أن كتابتنا العربية غير المشكلة أشبه بهيكل عظمى للكلبة لا حياة له إلى أن يسبغ القارئ عليه حياة بإضافة الحركات وإخراج النطق الصحيح . وينطبق هذا القول ، إلى حد ما ، على

جميع اللغات ولكنه ظاهر الوضوح في العربية الحالية من الحروف المصوتة . خذ مثلاً جملة « من علمني حرفاً صرت له عبداً ، فإنها مجموعة حروف صامتة لا يمكن أحد الناس أن يقرأها ما لم يكن يعرف سابقاً أنها كيت وكيت في اللفظ . ويدرك القارئ هذا الأمر بوضوح إذا كتبنا الجملة بالحرف اللاتيني فإنها تكون هكذا : MN, 'Imni HRf srt, Iho 'bd .

وظاهر أن كتابتها لا تدل على لفظها مطلقاً ، إنما يستطيع العرب قراءتها لأنهم يعرفونها سابقاً . إذا الكتابة ليست اللغة بل اصطلاح لتدوين ألفاظ اللغة ، وقد يكون هذا الاصطلاح حسناً ينقل اللفظ بيسر ووضوح كما هي الحال في الحرف اللاتيني ، وقد يكون اصطلاحاً غير موفق كما هو في الكتابة الصورية ، أو كما هو في الحرف العربي الحالي من الحركات .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن اللغة لا تعرف الجمود ، فهي أبداً في تغير مستمر بينا الكتابة جامدة ثابتة محافظة . ولذلك ترى فرقاً عظيماً بين الكتابة واللفظ ، ذلك لأن اللفظ يتغير ولكن محافظة الإنسان على شكل الكتابة تجعلها تتسكع في المؤخرة . فالإنكليزي يكتب laugh ويلفظ Laf ويكتب through ويلفظ Thru . وكذلك الأفرنسي فإنه يكتب Ils mangent ويلفظ il manj . وعند ما تهب طبقات الشعب مطالبة بالتيسير هنا وفي انكلترا وفي فرنسا تصطدم برجعية عنيدة . ولكن سيأتي يوم ، وهو قريب ، عند ما يدرك كل إنسان ، وليس علماء اللغة فقط ، أن الكتابة عرض واللفظ جوهر . وهذه القضية ، بالنسبة إلينا نحن العرب ، أمر يجب أن ندركه على وجهه الصحيح لأن حرفنا من أعقد مشاكل اللغة .

يأخذ علماء اللغة المعاصرون على الصرفين الكلاسيكيين مبدأ اعتبارهم الكتابة مقياساً للغة فجاءت أكثر قواعد الصرف والنحو في كثير من اللغات قواعد كتابة لا قواعد نطق وفهم وإفهام . ولقد فات الصرفيون القدماء أن المكتوب محبوس ثابت وأن اللغة جسم حي نام متطور . وكل قانون مبني على المخطط الثابت يؤدي بنا إلى نتيجة محتمة : فرق شاسع بين

المكتوب والمقروء . الصر في يجمد اللغة ويوقفها عند حد معين ، وهو في عمله هذا كرجل يضع سياجا من قصب في وجه دبابه من فولاذ .

(د) اللغة أكثر من فونيمات :

ليست اللغة مجموعة كلمات مركبة من فونيمات ، وليست اللغة رموزاً كتابية . هذه من اللغة ، وجزء هام من اللغة ، فضلا عن هذه ، حياة . فإننا عند ما نتكلم لا تنفوه بسلسلة من كلمات على نغم واحد دون إحساس أو شعور كآلة ميكانيكية تردد أصواتا لا حياة لها . كلا ! بل في اللغة عنصر هام هو العنصر الإنساني الذي يضاف على اللغة مسحة من تأثير السحر والجمال .

هل سمعت شاعراً يلقي قصيدة هو ذاته ؟ خذ القصيدة ذاتها واقراها أنت لنفسك ثم اصغ إلى ناظمها يقرأها فإنك تجد فرقا عظيما بين قراءتك إياها وبين قراءة الشاعر . الفرق في العنصر الإنساني . فإننا عند ما نتكلم نرفق كلامنا ، وبدون تكلف وتصنع ، بشيء من الإحساس والعاطفة والصوت المنخفض أحيانا والقوى أحيانا أخرى ، والنغم ، والنبرة ، والإشارة الخفية باليد ، والانفعالات التي تظهر في ملامح الوجه ، جميع هذه تكسب اللغة شيئا من السحر ، وأحيانا تتكلم وكأن الجسم كله يشترك في هذه العملية . ثم إننا نحاطب الطفل بلغة وبنغم يختلفان عن لغتنا ونغمنا عند كلامنا مع الرئيس أو الصديق أو الحبيب أو الخادمة . هي الإضافات هي من صلب اللغة ولكن لا تظهر كتابة أنها من اللغة . وإذا كنت في شك من ذلك — من أنها جزء من اللغة لا ينفصل عنها — فمثل لك بمثلين من الحياة : المسرح وقراءة الأولاد في قاعة الدرس .

أذكر أنني شهدت رواية تمثّل على مسرح من مسارح لندن ، وقد أعجب بها الجمهور إلى حد أن الرواية تمثّل منذ سنتين . وأذكر أنني قبل مشاهدتي الرواية قرأتها في طبعة رخيصة ثمن النسخة شلن . ولا أظن أنني استمتعت

بقراءتها ولا أخذت بما فيها من أحاديث ونكات ، من جنون وفلسفة ، من كذب وصدق ، من رياء وإخلاص . ولكن شعرت شعوراً يختلف تمام الاختلاف عند ما شهدت الرواية على المسرح . استمتعت كثيراً وضكت كثيراً وفكرت كثيراً وتأثرت كثيراً . ولماذا ؟ ذلك لأنى عند ما قرأتها لم ألس العنصر الإنسانى ، أما على المسرح فأشخاص الرواية أحياء يتكلمون وفى كلامهم حياة ، وأحياناً كثيرة لم يتكلموا ، ولكن الجمهور كان يقرأ ، يقرأ بوضوح ، ما يحول فى عقولهم وقلوبهم من أفكار وعاطفة . كانت عيونهم وملاحظ وجوههم وحركات أجسادهم تتكلم . ليست اللغة فونيات فقط ، اللغة حياة وهى العنصر الإنسانى .

هل دخلت غرفة درس وأصغيت إلى الأولاد يقرءون ؟ هنالك معلمون ومعلمات أدركوا أن القراءة الفعالة هى التى يكون فيها العنصر الإنسانى ظاهراً قوياً مؤثراً ، فيطلب المعلم أو المعلمة إلى التلاميذ أن يرفعوا الصوت هنا وأن يخفضوه هناك . هنا سؤال وهناك جواب ، هنا شدة وهناك لين ، هنا فرح وهناك حزن ، هنا استعصاف وهناك طلب ، وفى جميع هذه الحالات يجب أن يظهر المعنى بواسطة إضافة العنصر الإنسانى الذى لا تراه فى السطر أمامك .

وما يؤسف له أن مدارسنا العربية لا تزال القراءة نوعاً من التريديد الميكانيكى وعلى نغم واحد مزعج من أول الصفحة إلى آخرها .

(هـ) ليسى للفز كيان بروود الإنسان :

وهذه حقيقة لا تحتاج إلى إقامة دليل ، فإنها أقرب إلى البدييات منها إلى الأمور التى تتطلب البرهان ؛ فالبابلية ، مثلاً ، كانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان الشرق الأدنى وكانت كتابتها محترمة متبعة فى أقاليم عدة ، وخلفت آثاراً كتابية تبسع لوضع معجم كبير ، ولكن اللغة البابلية ماتت

لأن الذين كانوا يتكلمون بها انقرضوا أو اندمجوا في حضارات أخرى .
ذلك لأنه لا كيان للغة بدون الإنسان .

وبترقب على هذا القول نتائج بعيدة الأثر ، وأبعدها أثرا إعادة النظر
في فلسفة النحو المبينة على فكرة العامل — العامل اللفظي والعامل المعنوي —
فقالوا مثلا إن سبب الأعراب العامل ، فالرفع والنصب والخفض لا يكون
إلا بعامل ، وسبب المنع من الصرف علة من العلل ، وسكون لام الفعل
في مثل « أكلت وأكن » لاتصاله بضمير صحيح . بكلام آخر عزوا هذه
الظاهرة اللغوية أو تلك لأثر كلمة في كلمة . فإن « إن » تنصب المبتدأ وترفع
الخبر « كان » ترفع المبتدأ وتنصب الخبر فكان للكلمة سحرا .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الصرفيين والنحويين لم يقبلوا بهذا
المنطق فإن ابن جني في « خصائصه » يقول مامعناه أن الرفع والنصب والجزم
مرده إلى المتكلم نفسه لا لشيء غيره . أى أن الإنسان هو العامل الأول
والأخير في عملية النطق . وقد ألف مفكر عربي ؛ ابن مضاء القرطبي كتابا
في هذا الموضوع سماه « الرد على النحاة » حاول فيه أن يدحض المنطق الذي
كان يتمسك به النحاة فإنه يقول إن العامل هو الإنسان ذاته . ليتصور
القارئ ماذا يترتب على هذه النظرية الصحيحة للغة في تدريس اللغة . فعوضا
عن أن نقول للتلاميذ في إعراب « العلم نافع » العلم مبتدأ مرفوع بالابتداء
(عامل معنوي) نقول العرب تقول هكذا ولا تعليل آخر . وفي جملة « إن
الصقس جميل » الطقس منصوبة لأن العرب هكذا قالوا وكفى .

وإني أذكر بهذه المناسبة بعض ما كان ينشأ من جدل بيني وبين الأستاذ
فرث Firth من جامعة لندن عند ما كنت أحضر مجلس تعليمه (Seminar).
فإني كنت أطلب جوابا على « لماذا؟ » ، « ما السبب » فكان يجيبني الأستاذ
« السبب بسيط جدا : الإنسان ! وأى تعليل آخر هو حدس وتخمين
أو تقوّل في أمور لا نعرف لها سببا » .

اللغة من الحياة الإنسانية وبدون الإنسان لا كيان للغة فإن عاش عاشت
وإن مات مات ماتت .

لغة ولهجة

يجدر بنا قبل أن نبحث نشوء اللهجة أن نعرف هاتين اللفظتين . فإن أول ما يتطلبه العلم التحديد والوضوح في المصطلحات . ما الفارق بين لغة ولهجة ؟ وقد يعجب القارىء لهذا السؤال فإن الفرق عنده واضح ظاهر . ولكن على ضوء علم اللغة ليس الفارق بينهما بالأمر الواضح الظاهر ، إذ لا يفرق علم اللغة مبدئياً بين لهجة dialect ولهجة literary language كل لهجة هي لغة قائمة بذاتها ، بنظامها الصوتى وبصرفها وبنحوها وبتركيبها وبمقدرتها على التعبير .

قد يعترض أحد الناس على هذا الزعم بقوله إن الفرق بين لهجة ولهجة هو فى الأدب . اللغة هي التى لها أدب . أى أن الأدب مقياس للترقية . وهذا الزعم مردود ، فإن لهجات الزنوج والهنود الحمر ولهجات الأقوام المتقدمة لها أدبها : شعرها ونثرها وقصصها وأمثالها وأساطيرها وأغانها . وقد يختلف هذا الأدب فى غناه الروحى والعقلى والجمالى عن آداب الشعوب التى خبطت خطوات واسعة فى عالم الفكر والفن والفلسفة والعلم ، ولكن ذلك راجع لأثر الحضارة فى الاجتماع . هذه الأقوام التى تتكلم لهجات لا يروق أدبها لنا إذا أتيج لها أن تأخذ بقسط من الحضارة فإن هذه الآداب تتغير فى روحها ومادتها وشكلها .

وقد يقول آخر : اللغة هي التى تغاير لغة أخرى بأصواتها وبمفرداتها وبتركيبتها مغايرة لا يستطيع معها أن يفهم زيد وعمر . أما إذا كانت الفروقات فى الأصوات والمفردات والتركيب من النوع الذى يمكن فيه التفاهم بين الجماعات فإن هذه تحسب لهجات . أى ، بعبارة أخرى ، يضع صاحبنا التفاهم مقياساً للفرقة بين لهجة ولهجة ، ولكن هذا الزعم يسقط

من تلقاء نفسه إذا لاحظنا أن التفاهم من الأمور النفسية التي تتبع ذكاء الطرفين واتباعهم ؛ وهو قد يتيسر أو يتعسر لأسباب تعود إلى أحوال المتكلم والمخاطب .

وقد يقال لنا أخيرا إن الفارق بين لهجة ولغة هو أن اللهجة تنهقر وانحطاط لغوى من لغة فصحي . وقد وقع في مثل هذا الوهم لغويو العرب قديما وحديثا . فإنهم ينظرون إلى العامية على أنها انحطاط وتنهقر ، ولكن أثبتت دراسة اللهجات ، وبطريقة لا يتسرب إليها الشك . أن اللهجة قد لا تكون تنهقرا ولا انحطاطا لغويا Linguistic degeneration بل تطورا لغويا فرضتهما النواميس الطبيعية التي تتحكم بمصير كل لغة . وأفضل دليل على أن اللهجات ليست انحطاطا لغويا في كل الأحوال ، هو كون بعضها سابقا في الزمن للغة الفصحى . خذ مثلا كسر حرف المضارع في العامية فإنا نقول « يكتب يشرب » ولكن كسر حرف المضارع (وهو لغة قديمة) سابق في الزمن للفترة التي اعتبرت فيها لغة قريش اللغة الأدبية الفصحى ، فكيف يحق لنا أن نعتبر هذه الظاهرة — كسر حرف المضارع — انحطاطا لغويا ؟ وما لا شك فيه أن لهجة الألمان في سويسرا وألمانيا اللانزاس وورتمبرغ هي أسبق في الزمن من لهجة لوثر التي اعتبرت بعد ترجمة التوراة لغة ألمانيا الفصحى — أو على الأقل لا علاقة لها بها — فكيف يحق لنا أن نقول إن لهجة سويسرا الألمانية ولهجة اللانزاس الألمانية ولهجة الغابة السوداء هي انحطاط لغوى من لغة فصحي ظهرت في التاريخ بعد ظهور تلك ؟ الحقيقة التي لا مرأى فيها هي أنه لا فارق جوهرى بين لهجة ولغة إنما الفارق هو أن لهجة ما ، ولسبب خارجي ، أو لظروف خاصة ، تعتبر لغة قومية رسمية ، بينما لهجة أخرى ، ربما أفضل منها ، لا يعترف بها . فلو أن التوراة الألمانية مثلا ترجمت إلى لهجة برلين لكانت لهجة برلين الألمانية الفصحى لا لهجة هانوفر . إذا القضية قضية « سلطة عليا » وقضية اعتراف بهذه السلطة . ما هي هذه « السلطة العليا » التي ترفع لهجة ما إلى مصاف اللغات القومية الرسمية ، والتي تهمل لهجة أخرى فتعتبر لغة رديئة ؟

السلطة العليا

إن التاريخ يُعج بالأمثلة الناطقة على فعل السلطة العليا في رفع لهجة ما إلى مرتبة لغة قومية رسمية . وكنا نود أن نأخذ بالتفصيل تاريخ كل لغة قومية ونبين كيف ارتقت هذه اللغة من لهجة وضيعة إلى لغة أدبية . ولكن سرد حقائق التاريخ الجافة أمر يرهق أكثر الناس . فضلا عن أن هذا يقتضينا جهوداً نحن في غنى عنها ، لأن الواحد منا يستطيع ، إذا أحب ، أن يراجع تاريخ كل لغة في الموسوعات أو في الكتب التي تبحث تاريخ تلك اللغات وآدابها . إنما سنكتفي بذكر نبذ عن بعضها إيضاحاً لما نحن بصدده .

تكون السلطة العليا في اللغة أحد هذه العوامل :

(أ) عامل عسكري — سياسي .

(ب) عامل ديني .

(ج) عامل أدبي .

(د) عامل اجتماعي طبقي .

وليس من الضروري أن تكون السلطة العليا عاملاً مفرداً ، أي مكوناً من عامل واحد ، بل قد يتداخل عاملان أو ثلاثة في تكوين هذه السلطة . وسنمثل لك على كل من هذه العوامل .

(أ) عامل عسكري — سياسي :

وأفضل مثال على ذلك اللهجات الروسية ، التشيكية والبغارية والصربية . إن هذه لهجات روسية ، ولكنها أصبحت لغات « رسمية » معترفاً بها بفضل عامل سياسي أو عسكري — سياسي . فإنه عندما استقلت هذه البلدان عن روسيا أصبحت هذه اللهجات الإقليمية لغات قومية « أدبية » معترفاً بها . ثم اعتبر لغة أسبانيا الأدبية . ما هي ؟ هي لهجة الطبقة العسكرية التي

أبليت في حروبها ضد العرب ، ونغنى بها الجيوش القسطنطينية . فقد احتلت قسطنطينيا ، بفضل هذه الحروب التي شنتها على العرب ، مقاماً عسكرياً سياسياً في بلادها غير منازع ، وأصبحت قسطنطينيا اللغة الرسمية للبلاد . والناس على دين ملوكهم ، ولكنها في الأصل لهجة لاتينية يشوبها بعض عناصر لغوية محلية .

واعتبر كذلك لغة الرومان : اللاتينية . ما هي ؟ هي لهجة من عشرات اللهجات التي كان يتكلم بها أهل إيطاليا القدماء قبل ظهور الرومان كإمبراطورية عالمية . هي لهجة مدينة روما وبفضل مركز روما العسكري والسياسي أصبحت لهجة روما لغة الرومان القومية الأدبية ، وانتشرت في العالم بفضل الانتصارات العسكرية التي أحرزها الجيش الروماني .

(ب) عامل ديني :

وأفضل مثال على فعل العامل الديني نشوء اللغة الألمانية الفصحى واللغة العربية الفصحى . وجميعنا يعرف شيئاً عن تاريخ الحركة الإصلاحية ، وكلنا نذكر لوثر وخروجه على الكنيسة الكاثوليكية . فقد ارتأى لوثر بأن أفضل سلاح يستطيع به أن يحارب الكنيسة هو ترجمة الكتاب المقدس إلى لغة الناس ليقروه . فإن اللاتينية لم تكن لغة الحياة ، ولم يستطع الناس أن يقرءوا كتبهم الدينية . وبما أن لوثر كان من مدينة هانوفر فإنه ترجم التوراة إلى لهجة مدينته متحدياً بذلك سلطة الكنيسة . وقد أعجب الناس بهذه الترجمة السلسة القريبة إلى عقولهم وقلوبهم ، وعلى مر الزمن اعتبرت اللغة الفصحى . ويسمى الألمان لغة المسرح .

وليس لنا أن نعيد على القراء خبر ارتقاء لغتنا العربية الفصحى من لهجة حجازية نجدية إلى مرتبة أدبية سامية بفضل نزول القرآن الكريم بها ، لأن هذا من الأمور المعروفة التي لا تحتاج إلى تعليق . واللغة العربية مدينة بحياتها وباحتفاظها بشكلها القديم للقرآن الكريم .

(ج) عامل أدبي :

والأمثلة على كون السلطة العليا أدبية كثيرة ، نخص بالذكر منها اللغة اليونانية الكلاسيكية ، لغة أفلاطون وأرسطو . فإن هذه اللغة كانت أصلاً لهجة أهالي أتيكا في القرن الرابع ق . م وظلت اللغة الرسمية إلى القرن التاسع بعد المسيح . وعند ما انتقلت هذه اللهجة إلى شواطئ آسيا الصغرى — أيونيا — أصبحت تعرف باللغة الأيونية الرسمية ، وهي التي كتب بها هيرودوتس . أن الذي فرض هذه اللهجة هو ما دُرثن بهذه اللهجة من أدب وعلم وفلسفة .

ومن هذا القبيل لغة إيطاليا الحديثة فإنها لهجة فلورنسا ، أو بالأحرى اللهجة التي كتب بها ونظم بها أدباء وشعراء أمثال دانتي وبترارك وپوكاتشيو .

(د) عامل اجتماعي أو طبقي :

وأفضل مثال على ذلك اللغة الفرنسية أو بالأحرى لغة باريس بعد القرن السابع عشر . فإن لهجة باريس (أو مجتمع باريس) أصبحت المثال الأدبي الرفيع الذي ينبغي لكل كاتب ناثق أن يحتذيه .

ومن هذا القبيل لغة الانكليز فإنها كانت على وجه التدقيق اللهجة المحكية في المد لندز Midlands وهي مزيج من النكلوسكسوني قديم ونورمانى وما أضيف إليها من مصطلحات علمية من الإغريقية واللاتينية . وقد أصبحت هذه اللهجة لهجة لندن^(١) والمجتمع اللندنى الراقى . وهي لهجة تعرف بـ انكليزية الملك ولا يغرب عن بالنا أيضاً اللغة الروسية الأدبية

(١) أما اليوم فإن انكليزية لندن لاتعد المقياس الأدبي في صفاء اللغة إن كان ذلك من جهة اللفظ أم من جهة التعبير ، وذلك لحليط الناس في هذه المدينة . ويجب ألا ننسى المنافسه بين مدينة وأخرى . فإن أهالي أوكسفرد وكبريدج يعتقدون أن لفظهم هو أفضل لفظ وتعبير أصنى وأبلة تعبير .

فإنها لغة أهل موسكو . ذلك لأن أدياً نابغاً ، ليونوسوف ، كتب بها وأعجبت كتابته أهل موسكو فاقننى به الكتاب والشعراء وأصبحت فيما بعد اللغة الروسية الفصحى .

لقد ذكرنا هذه الأمثلة لنوضح أن اللهجة تصبح لغة بفضل سلطة عليا تفرضها . وتكون هذه السلطة عسكرية أو دينية أو أدبية أو طبقية . أما اليوم فما هي السلطة ؟ في كل أمة من أمم الأرض جماعة ، وجماعة كبيرة ، تقول إن السلطة هي للتقليد tradition هي للسلفية ، هي لغة التاريخ ، اللغة التي تحدث إلينا بشكل شعر أو نثر وقصص وأغان ، وكل خروج عن التقليد يعد خروجاً على الاجتماع . وأشد ما يكون الناس رجعية في نظرهم إلى اللغة ولذا ترى هذه الجماعة السلفية شديدة المحافظة في كل قطر . فن ذا يجرؤ في انكلترا مثلاً أن يكتب thru بدلاً من through و laf بدلاً من laugh ؟ ومن يجرؤ في انكلترا — هذا إذا أراد أن يحتفظ بمركزه الاجتماعي الأدنى — أن يقول I ain't عوضاً عن I am not وقل مثل هذا في ألمانيا وفرنسا وفي كل بلد يعتز بلغته ويفخر بأدبه . لا نعتقد أن الفرنسي المعروف بدقة التفكير وحسن المنطق ، الفرنسي الذي أعطى العالم النظام المترى ، يتنازل يوماً عن المعادلة $4 \times 20 + 11 = 91$ مستعيضاً عنها بوضع لفظ خاص للتسعين فيقول ٩١ .

كيف تنشأ اللهجة

أما مؤرخو العرب وصرفيوهم فقد أشاروا إلى اللهجات العربية إشارات عابرة^(١). ولكنهم لم يحاولوا الإجابة عن السؤال ، كيف نشأت ؟ فقد تكلم الكسائي ، تلميذ الخليل عن لحن العامة (وله في الموضوع كتاب مخطوط) وذكر الجاحظ كثيراً من النواذر اللغوية التي تنكس لحن العامة وعجمة بعض الناس . وتكلم ابن خلدون عن « فساد الملكة » ، « ولغة الأمصار » ، وتكلم غيره عن « لغات فاسدة » وعن « الرطانة » ، « والعجمة » . ومنهم من أشار إشارات إلى لهجات بالذات وقرنوها بأسماء تميزها كالكشكشة والعننة والطمصانية وغيرها كثير^(٢). وجل ما يفهم من كلامهم أن اللهجات العربية هي انحطاط لغوى Linguistic degeneration فهم من هذا القبيل ينتمون إلى المدرسة التي تقول إن اللهجة انحطاط لغوى . وقد أشرنا سابقاً إلى فساد هذا الرأي ، وقلنا إن علم اللهجات قد أثبت بطريقة لا يتسرب إليها الشك أنه ليس ضرورياً أن تكون اللهجة انحطاطاً من لغة فصحي . فقد تكون أقدم منها في الزمن ، أو قد تمثل تطوراً وتقدماً لا انحطاطاً . إذاً علينا أن نهمل هذا الزعم وأن نفتش عن سبب نشوء اللهجة الحقيقي . ونحن نعتقد أن في مقدمة الأسباب ثلاثة عوامل :

(أ) المغيرة الفردية .

(ب) اتساع الرقعة الجغرافية .

(ج) احتكاك لغة بلغة أخرى .

(١) وقد جمع هذه الإشارات العابرة مستشرق الماني اسمه Johann Fueck في كتاب له نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار « العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب » ط القاهرة ١٩٥١ مطبعة دار الكتات العربي .

(٢) الخصائص لأبن جني ص ٤١٠-٤١٢ وعنه أخذ الميسوطي في الزهر ص ٢٢١-٢٢٦

(١) المغايرة الفردية :

لقد أثبت لنا علم اللغة أن لكل إنسان لهجته الخاصة ، وأن هناك لهجات في اللغة بقدر ما هنالك من أفراد يتكلمون هذه اللغة ! وهذه أول مفاجأة يفاجئنا بها علماء اللغة . يقولون لنا إن المجتمع الذى يتكلم أفراد له لغة واحدة لا وجود له . وإذا أبدت شكاً فى ذلك أدخلوك إلى مختبر الفونتيك وقالوا لك اجلس أمام هذه الآلة المسجلة وتلنظ بهذه العبارة : « ما أجمل القوس » ، ثم بعد ربع ساعة يقولون لك تعال سجلها لنا مرة أخرى . ثم يتركوك تقابل بين تسجيلك الأول والثانى . وستجد لنفسك فروقاً . ولكنها فروق لا تستطيع الأذن تمييزها ، إنما الآلة تستطيع ، وإذا أصررت فى المعادة أدخلوك إلى غرفة مظلمة وطلبوا من صديقين لك ، لا علم لك بوجودهما هناك ، أن يتكلما . فإنك تعرف حالا أن صاحب الصوت هذا هو فلان ، وصاحب الصوت ذاك هو فلان . فإن هناك تبايناً ظهراً فى اللنظ وفى الشدة واللين والنبرة والنغم وربما فى اتقاء المزدادات وفى تركيب العبارات .

تعرف هذه الظاهرة فى اللغة المغايرة الفردية . ولا تظن أن هذه المغايرة تعمدية ، كأن يكون أحداً متحدثاً أو متشدقاً أو متخرجاً فى لفظة ، كلا ، إنما هذه المغايرة الفردية طبيعية عفوية . ولا نعلم السبب فى ذلك كما أننا لا نعلم لماذا لا تشبه حبة قمح حبة أخرى فى عرمة من القمح . ولا يولد ولد يكون صورة طبق الأصل لأبيه أو لأمه . فكان الطبيعة تكره الوحدة Uniformity الطبيعية تميل إلى المغايرة . وهذه المغايرة الفردية فى اللغة ، جيلاً بعد جيل ، تترك أثرها فى اللغة . ونحن على يقين أن العرب الأحياء يقرءون الفصحى على غير ما كان يقرؤها الفصحاء فى العصر الأموى . أما من جهة التكلم فظاهر أن لساننا العربى اليوم غير لسان العرب فى الأمس البعيد .

أحالك تقول : إذا ، حسب هذا الزعم ، تنجز اللغة بعد جيل أو جيلين إلى لهجات لا حصر لها . كلا . ذلك لأن هناك ، مقابل هذا الميل العفوى

إلى المغايرة الفردية ، ميلا آخر نحو النورم^(١) . ولكل لغة نورمها الخاص . فإن أفراد المجتمع ، عن غير وعى ، يميلون إلى البقاء ضمن نطاق نورم اللغة . قد يكون السبب فى ميلنا غير الواعى للبقاء فى النورم اللغوى خوفاً من أن نخالف ما عليه الجمهور ، أو قد يكون إصلاح الخطأ الذى يحرص الآباء والجيل القديم على أن يذهبوا عليه الجيل الجديد رادعاً عن الخروج من النورم ، أو قد يكون السبب خوفاً من الهزء والسخرية ، أو قد يكون تهرباً من أن نرمى بالتحذلق والتشدد والمغايرة لا لسبب سوى أن يقال عنا إننا نختلف عن الآخرين . وقد يكون هناك أسباب بسيكولوجية أخرى لا نعرف لها تعليلاً . والأسباب لا تهمننا بقدر ما يهمننا تقرير الواقع وهو أن فى كل لغة حية قوتين متضادتين ، الأولى تدفع بالفرد عن المركز Centrifugal والأخرى تشدبه نحو المركز Centripetal . وهذا الشد بالفرد نحو المركز والدفع به عن المركز يخلقان نوعاً من التوازن اللغوى الذى يعرف بالنورم . وهذا مما يبقى اللهجة ضمن نطاق معين إلى حين يؤخر عمليه التجزؤ السريع .

(ب) انساع الرقعة الجغرافية

ذكرنا سابقاً أن اللغة مجرى طبعياً تسير فيه . وقد تحافظ اللغة على أصواتها وعلى صرفها ونحوها وتركيبها زمناً طويلاً إذا ظل المجتمع الذى يتكلم هذه اللغة مجتمعاً صغيراً قريباً من الوطن الأول ، أو إذا ظل مترابطاً متماسكاً متجانساً منكمشاً على ذاته ، تشدد أفرادهم بعضهم إلى بعض عوامل اقتصادية وروابط وأمان مشتركة . ولكن هذا لا يعنى أنه لن يطرأ تغيير ما . كلا . بل يكون التغيير طفيفاً وبطيئاً ويظهر أثره فى الحال . أما إذا انحل المجتمع إلى مجتمعات بسبب ضعف الروابط التى كانت تربطه سابقاً أو بسبب

(١) وهو النموذج العام ، أو القياس المشترك المتفق عليه فى المجتمع ، أو العالم المؤلف أو الطابع المميز . وسنستعمل لفظة نورم بشكلها الغربى تخلصاً من صعوبة الترجمة أو إلى أن يتفق العرب على ترجمة لها . ونحن إذا عجزت اللغة عن الترجمة فإننا لا نستكف عن الإقتباس .

فقدانها ، فإن المجرى يميل إلى التشعب والانقسام ، وعندها تظهر الفروقات اللغوية بسرعة ووضوح . ولكن يجب أن نلاحظ أن المهاجرين أو النازحين عن أوطانهم إلى أوطان جديدة يحتفظون في الوطن الجديد بميزات لغوية قديمة قد تكون اندثرت وتلاشت في الوطن القديم كما حدث في فرنسية مونتريال (كندا) فإنها تحتفظ بعناصر لغوية تعود إلى القرن السابع عشر وليس لها من وجود في لغة فرنسا الأم . وكذلك في برتغالية البرازيل ، فإن فيها عناصر لغوية قديمة لن تجدوها اليوم في لغة البرتغال الأم . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن فقدان الأعراب من لغة الكلام وظواهر لغوية أخرى ككسر حرف المضارع من الأمور السابقة للهجرة العربية إلى مواطن جديدة ، وليس نتيجة العوامل التي ظهرت بعد الفتح والاحتكاك بأمم جديدة .

إن اتساع الرقعة الجغرافية يعمل على تشعب المجرى وتجزئته إلى مجار صغيرة مختلفة .

(ج) امتلاك لغة بلغة أخرى

عندما تدخل لغة جديدة إلى بقعة جغرافية جديدة فإنها لا تدخل إلى فراغ لغوى . يجب أن يكون هناك قوم أو أقوام يتكلمون لغات مختلفة . وفي هذه الحالة يحدث واحد من أمرين : إما أن تتغلب لغة الفاتح فتحل المرتبة الأولى وتصبح لغة البلاد الرسمية ، أو أن تتغلب لغة المغلوبين بفضل تقدمهم في الحضارة ، أو بسبب قلة أفراد الجماعة العسكرية المحتاجة . وفي الحالتين يطرأ تغيير في اللغتين سواء أماتت الأولى أم انتصرت الثانية . إن نتيجة هذا الصراع اللغوى الثقافى يظهر في اللغة . وأفضل مثال على هذا احتكاك العربية بالآرامية والإيرانية .

بدأ تعرب سوريا قبل الفتح العربى . ولم يكن من الصعب على اللغة العربية ، نظراً للتعرب ونظراً للقرنى العرقية واللغوية بين الآراميين والعرب ، أن تفرض ذاتها بفضل العامل الدينى والعسكرى . وقد كان

احتكاك العرب الثقافى بأهل سوريا القدماء قديم العهد يظهر لك فى كثير من المفردات الثقافية والزراعية والدينية التى هى من أصل سريانى^(١) فكان من الطبيعى أن يعترى العربية المحكية تغير كبير فى الأصوات والتراكيب والتعابير ، سواء أكان المتكلمون من العرب أم من أهل البلاد . أثر السريانية ظاهر فى عربية سوريا ولبنان المحكية وهذا أمر طبيعى . فعندما يقول اللبناى أو السورى أو العراقى : « شفتو لاختوك أو لختك » ، فإنهم يتكلمون لهجة مفرداتها عربية ولكن تراكيبها سريانية فصيحة . هكذا يجب أن يقال فى السريانية . فكأنه يصعب على الناس أن ينسوا نسياناً تاماً ما يسميه علماء اللغة نماذج لغوية Speech Patterns . وقد نبه أكثر من مستشرق إلى أثر السريانية فى اللهجة اللبنانية السورية العراقية (موطن الآرامية القديمة) نخص بالذكر منهم العالم اللبناى المنسيور فغالى الذى كان أستاذاً للغات السامية فى جامعة بوردو فى فرنسا . وفى كتبهم ما يغنيننا عن الإسهاب^(٢) .

أما احتكاك العربية بالإيرانية فلم يكن له من أثر فى التركيب نسبة لاختلاف العائلتين اللتين تنتسبان إليهما . ولكن التفاعل الحضارى بين فارس والعربية ظهر فى المقتبسات من المفردات التى تدل على نوعية التفاعل . فإن العربية مثلاً اقتبست كلمات عديدة لها علاقة بالمطبخ وفن الطبخ ، وبالمزحل وأثاثه ، وبالدواوين الحكومية ومصطلحاتها ، وبالنظام الاقتصادى والعسكرى . وكذلك أخذت الفارسية عن العربية أكثر مما أعطتها ، فإن الفارسية تعج بالمفردات العربية الدينية والفلسفية والصرفية والنحوية ، غير

(١) راجع كتاب Siegmund Fraenkel : Die aramaischen Fremdwörter in Arabischen, Leiden 1886.

(٢) راجع كتاب Mgr. Michel Feghali : Syntaxe des parlers arabes actuels du Liban, 1923, Paris.

وكذلك راجع Etude sur les emprunts Syriaques dans les parlers Arabes du Liban, Paris 1918.

أنه لا أثر لتفاعل لغوى فى التركيب (الصرف والنحو) .

* * *

قد لا ترضى عن هذه الأسباب التى تعمل على نشوء اللهجة : المغايرة الفردية ، واتساع الرقعة الجغرافية واحتكاك لغة بأخرى . فقد تقول : مثلاً ، أليست العناصر الإنسانية فى التعبير اللغوى أشد فعلاً من العناصر الخارجية : الطبيعية والجغرافية ؟ أو ليست هذه العوامل إنسانية أى أن مردها الأخير للإنسان ؟

إن علماء اللغة يسلون بأن للطبيعة أثراً فى اللغة : المناخ والطوبغرافيا والطعام وخلافها ، ولكن هذا الأثر طفيف ويظهر فى المفردات لا فى التركيب . واللغة بتركيبها . ولذلك ترى أن علماء اللغة يميلون إلى تحليل التعبير اللغوى عن طريق العنصر الإنسانى . هناك نواميس لغوية تتحكم بمصير اللغة ولكن هذه النواميس — إذا صح أن نسميها نواميس — مردها فى آخر الأمر إلى الإنسان ذاته . هذه النواميس اللغوية هى :

(أ) تغيرات فى لفظ الحروف المصوتة (الحركات) .

(ب) تغيرات فى لفظ الحروف الصامتة .

(ح) تغيرات فى المفردات من جهة المبنى والمعنى .

(د) تغيرات فى التركيب .

ويمحسن بنا أن نأخذ كلا منهما بشئ من الإسهاب .

(١) تغيرات فى لفظ الحروف المصوتة (الحركات)

والحروف المصوتة أكثر الفونيمات تعرضاً للتغير ، وهذا التغير يضى على اللهجة المحكية مسحة تجعلها مغايرة تمام المغايرة للغة الأدبية . ألا ترى الفرق العظيم بين حركات اللغة العربية المحكية وبين حركات العربية الفصحى كما يجب أن تكون عليه عند قراءة تلك قراءة فصيحة ؟ إن حركات العربية الأصلية ثلاث ، قصيرة وهى *aiu* ، وتمثلها الفتحة والكسرة والضممة

وطويلة إذا تبعها الف، ياء، وواو فتصبح âiû. ولكن الحركات في العربية المحكية أكثر من ثلاث. فإنه فضلاً عن هذه فإن هناك حركات مغايرة للفصحى: eê ey êy oô وربما غيرها كثير. ثم اعتبر لفظ المقطعين - و aw كما في يوم وى كما في بَيْت، فإنها في أكثر اللهجات العامية أصبحت e و o كما في yôm و bêt. واعتبر كذلك اختلاس حركة وإطالة حركة أخرى خلافاً لما هي عليه في الفصحى. ففي الفصحى نقول أكتب وفي العامية «كتب»، وفي الفصحى نقول قم وفي العامية «قوم». وهل سمعت أناساً يلفظون ô â ؟ أصغ إلى أهل الكورة (في لبنان) يقولون «طروبلس وجوهل وعوقل»، بدلاً من طرابلس وجاهل وعاقل.

وهناك قضية لم يعطها لغويو العرب حقها من العناية، حتى أنهم لم يضعوا لها لفظاً خاصاً بها، ونعني قضية النبرة accent وأثرها في الحركة من حيث الطول والقصر. فن قوانين التركيب المقطعي للكلمة (syllabic structure) أنه إذا كانت الكلمة مركبة من مقطعين الأخير منهما طويل الحركة، ووقعت النبرة على المقطع الأول فإن المقطع الثاني الطويل يصبح قصير الحركة كما حدث في لفظ كلمة Friday المركبة من مقطعين Friday (الأخير طويل الحركة). ولكن النبرة على المقطع الأول ولذلك اختلست حركة المقطع الأخير فأصبح قصيراً، فيلفظها الإنكليز Fraidi. ويقول اللبناني كتب ولكنه يقول «كتب له» إن حركات اللغة تنتقل من جيل إلى جيل بالتقليد. ولكن مهما حرصنا على أن يقلد الجيل الجديد الجيل القديم تقليداً تاماً في لفظ الحركات وفي النبرة فإن هذه تظل عرضة للتغيير. وسبب التغيير هو العنصر الإنساني: الشذوذ، الفردية، المغايرة، الكسل، أو أمور إنسانية أخرى نجعلها (١).

(١) بعض المدارس اللغوية الحديثة، مثل مدرسة جامعة لندن، ترفض رفضاً باتاً الدخول في «لماذا؟» «ولأى سبب؟» و«ماهو التعاليل» يقولون ان عمل عالم اللغة هو وصف مايجرى أو وصف ماهو واقع وليس له أن يفسر هؤلاء يعرفون بالوصفيين (descriptivists). وعندهم في ذلك أننا لا نعلم لماذا يحدث التغيير.

(ب) تغييرات في لفظ الحروف الصامتة :

ويطرأ تغيير في لفظ الحروف الصامتة . فإن حرف التاء — خلا في مجتمعات عربية قليلة كالمجتمع الدرزي في لبنان — فقد قيمته اللفظية الأولى Tā وأصبح تاء ، وفي بعض كلمات سينا كما في « حيس وبحيس » عوضاً عن حيث . وأصبحت القاف همزة في بعض الأرساط ، وجما مصرية في أوساط أخرى ، وقسم من أهالي بيروت يلفظونها كافاً . وقد استبدل حرف الذال بالذال وبالزاي فيقال « كذاب وكزّاب » . ويقولون « ذلك والّزى » عوضاً عن ذلك والذي . والعراق لا يفرق حتى في الفصحى ، بين ض و ظ .

لماذا تحدث هذه التغييرات ؟ ما الأسباب ؟ هل لأن حرفاً أشهى أو أعذب من حرف آخر ؟ علم اللغة لا يأخذ بالرأى القائل أن حرفاً أسهل من آخر . هل للبيئة من أثر ، أم هو العنصر الإنساني الذي ذكرناه سابقاً ؟

إن علماء اللغة اليوم لا يهتمهم تعليل الأسباب بقدر ما يهتمهم وصف الواقع . فالتاء نعرف مثلاً قانوناً صوتياً في اللغات السامية لا يتغير وهو أن التاء العربية يقابلها حرف الشين في العبرية والتاء في السريانية فيقال :

ثاب (عربي) شاب (عبراني) تاب^(١) (سرياني)

لماذا ؟ لا نعرف . ونلاحظ كذلك في اللغات الهندو جرمانية قوانين صوتية^(٢) ثابتة . مثلاً نلاحظ أن الكلمات الانكليزية التي تبدأ بحرف f يقابلها في اللاتينية أو الإغريقية p فيقال :

father : pater

fine : pente

لماذا ؟ لا نعرف . إنما يهتمنا تقرير الواقع وهو أن الأحرف الصامتة ، كالأحرف المصوتة ، عرضة للتغيير ، وعمل دارس اللهجات أن يسجل هذه المظاهر ويحاول أن يضبطها في شبه أحكام .

(١) إذا تاب إلى ربه توبة ليس عربياً بل سريانيا . يجب أن يكون في العربية تاب .

(٢) كالقوانين التي وضعها العالم الألماني Grimm وتعرف بقانون Grimm .

(ح) تغييرات في المفردات منه جهة المبنى والمعنى :

أما في المبنى فيكون التغيير نتيجة قلب مثل (أجا) بدلا من جاء ، (وخر ووعق) عوضاً عن حفر ووقع . أو نتيجة زيادة مثل رجال بدلا من رجل ، أو نقصان مثل مرءه عوضاً عن امرأه ، أو نتيجة نحت مثل (جانب) المنحوتة من جاء ب (واصطفل) المنحوتة من اصطف ل .

ويحدث تغيير في معنى المفردات . وهذا أمر معروف . فإنك إذا أخذت المعجم العربي — مثل لسان العرب — وراجعت بعض المفردات لأخذك العجب من بعد الشقة بين مفهومها الآن وبين مفهومها في الصدر الأول . اعتبر مثلاً لفظ الباخرة والقاطرة والجريدة والمذيع والهاتف والسيارة والمحرك والتيار . . . الخ ، وما يؤسف له أن قاموسنا العربي لا يؤرخ لنا معنى الكلمات ، أى تطور المعنى على عمر العصور كما يفعل القاموس العصري للغة العصرية كقاموس أكسفورد للغة الانكليزية . فإنك إذا قمت فيه عن معنى كلمة بسيطة مثل nice لوجدت أن هذه اللفظة مرت في أطوار عديدة وفي كل طور كان لها معنى يختلف قليلا ، وأحيانا كثيراً ، عن المعنى السابق .

(د) تغييرات في التركيب

وأكثرها راجع لفقدان الإعراب ، إذ من المعلوم أن في اللغات المعربة تدل علامات الإعراب على وظيفة الكلمة في الجملة بقطع النظر عن موقعها ، وقد تكون الرغبة في حرية التصرف في ترتيب الكلمات عاملاً من عوامل نشوء الإعراب ، أى إفساح المجال للتكلم أو الناظم أو المعنى من أن يغير مركز الكلمات في الجملة على أن تقرن هذه الكلمات بعلامات فارقة تدل على الوظيفة التي تقوم بها في الجملة . وذلك لأن العلاقة بين أجزاء الجملة ، في أبسط تركيبها ، كانت تظهر في الترتيب : الفاعل أولاً ثم الفعل ثم المفعول به . ولكن إذا أردنا ، لسبب ما ، أن نغير التركيب وجب علينا أن نوجد علامات فارقة لأجزاء الكلمة للدلالة على وظيفتها في الجملة . ففي العربية ، وهي لغة معربة ، نجد آيات كهذه :

إنما يخشى الله من عباده العلماء (قرآن ، سورة فاطر الآية ٢٥) .
 إن الله يرى من المشركين ورسولهُ (قرآن ، سورة التوبة ، الآية ٣)
 وإذ ابتلى إبراهيم ربه (قرآن ، سورة البقرة ، الآية ١١٨) .
 في هذه الجمل ، وفي أمثالها . يتوقف فهم المعنى على علامات الإعراب .
 وعليه فليس من الضروري أن نحافظ على ترتيب موقع الكلمات . إذ قد يأتي
 الفاعل في آخر الجملة والمفعول به في أولها . ولكن إذا سقط الإعراب
 وجب التعويض عن فقدانه ، ويكون التعويض أبداً في تغيير التركيب ، أى
 بتغيير موقع الكلمة في الجملة . ففي عبارة أخبر خالد أميناً . . . إذا سقط
 الإعراب يصعب علينا أن نميز بين المخبر والمخبر . ولكن في العامية حلت
 المشكلة بتقديم الفاعل أبداً فنقول « خالد أخبر أمين » .

إن اللغة ، كجسم حى ، تخضع للنواميس الطبيعية من حياة ونمو وتطور ،
 وهى شأن كل ظاهرة طبيعية تتبع فى جريائها الجهة التى تلتقى فيها أقل مقاومة
 ممكنة (Line of least resistance) واللغة كظاهرة انسانية تميل إلى الاقتصاد ،
 وبكلام آخر ، نستطيع أن نعمم القول بأن اللغة فى جريانها تسير .

من الصعب إلى السهل

من الحشن إلى الناعم

من المعقد إلى الميسر

من المزخرف إلى البسيط

ولذا تنشأ على عمر الأجيال لهجات مخالفة للغة الأدبية التى توقفت سيرها
 الطبيعى بوساطة سياج شائك من الأحكام وانضوابط .

[إن كثيراً من الفروق التى تشاهد بين اللغة الفصحى وبين اللهجات العامية ،
 إنما تنتج من حاجة الناس إلى التعبير عن أفكارهم بسهولة وبساطة ووضوح ،
 ومن نزوعهم إلى الاقتصاد فى الكلام .

ونذكر من قبيل المثال : إهمال الإعراب ، واختصار الصرف والنحو ،
 والاستغناء عن المترادفات :]

١ - فقدان الإعراب .

إن فقدان الإعراب — نتيجة طبيعية من نتائج السير نحو الأسهل :

اقرأ في مقدمة ابن خلدون ص (١) ٥٠٨ — ٥١١ وقرأ مقدمة ابن قزمان الأندلسي (٢) تجد أن النقمة على الإعراب قديمة العهد . وهام العرب نراهم قد أسقطوا الإعراب منذ الصدر الأول . وإذا صح الخبر عن أبي بكر أنه كان يقول : « لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فالحن ، (٣) وإذا صح الخبر عن رجل قرأ القرآن في حضرة النبي فلحن فقال « أرشدوا أخاكم ، وإذا صح أن عمر بن الخطاب كان يضرب أولاده على اللحن ولا يضربهم على الخطأ ، فإنه يمكن اتخاذ هذه دليلاً على أن الإعراب لم يكن متمكناً في لغة الناس قبل ظهور الدعوة . ولا تظن أن الناس أسقطوا الإعراب تعمداً ، أو خروجاً على نورم اللغة ، أو مشاغبة ، أو شعوية ، كلا إنما سقط الإعراب من تلقاء ذاته ، كما سقط في سائر اللغات السامية وغير السامية . ونحن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إن إسقاط الإعراب من لغة الناس المحكية سبق نزول القرآن الكريم ، غير أن القرآن الكريم ، نزل بلغة الأدب والشعر والدين لذلك العصر ، ومن الطبيعي ، لا بل من الضروري ، أن ينزل بلغة الأدب والشعر والدين (٤) ونعتقد أن المجتمع

(١) طبعة بيروت ، المطبعة الأدبية ، ١٨٧٩ ، وموضوع الفصل التاسع والثلاثون : في أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحجر . والفصل الأربعون : في أن لغة أهل الحضر والأمصار لغة كأمة بنفسها مخالفة للغة مضر .

(٢) لديوان ابن قزمان نسخة خطية وحيدة في لينجراد . وفي الجامعة الأميركية نسخة فوتوغرافية عنها . يحمل ابن قزمان في مقدمة الديوان حملة شعواء على الأعراب .

(٣) نقول إذاً ، وبخط تحتها ، لأن الحديث ينسب إلى كثيرين . فإنه ينسب إلى كثيرين . فإنه ينسب إلى الشعبي : راجع « الإرشاد » لياقوت الجزء الأول ص ٢٦ . والغريب أن الفراء يروى حديثاً عن أبي بكر يناقض الحديث السابق الذي نحن بصده وقال أبو بكر الصديق رحمه الله إن إعراب القرآن لأحب إلى من حفظ بعض حروفه » راجع Paul E. Kahle Cairo Geniza P. 116 (London 1647) .

(٤) يعتقد بعض المستشرقين أن لغة القرآن المعربة مبنية على قوانين اللغة العربية النجدية البدوية كما تتراءى لنا في الشعر ، وإن قواعد الإعراب وضعت في القرن الثاني . وقد جاهر =

الإسلامي الأول ، نسبة لإعجابه بهذه اللغة ، ونسبة لمقام القرآن الكريم في نفوسهم ، جهدوا أن يجعلوا من هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم لغة الناس اليومية . يدل ذلك على ذلك مبلغ الجهد الذي أنفق في سبيل ضبط أحكام هذه اللغة ، وفي محاربة اللحن ، وفي إصرار المقامات العليا على أن تكون هذه اللغة لغة الدواوين والكتاب والمنشئين . ووضع سياج حول اللغة للحفاظ عليها أمر طبيعي ، لا بل ضرورة ، لكل أمة ناشئة . الدولة الناشئة بحاجة إلى لغة قومية ، لأن اللغة القومية من مقومات الأمة كالشعب والبقعة الجغرافية والدين وإلى ما هنالك من مقومات .

ونحن لا نعترض على الحفاظ على لغة كلاسيكية لما فيها من كنوز ، إنما نعترض على المبدأ القائل بأن قوانين اللغة من صرف ونحو وأساليب ، لا تتغير ولا تبدل «كشريعة مادي وفارس» وذلك لأن اللغة تتغير ، شئنا أم أبينا .

إن كثيراً من اللغات الكلاسيكية كانت معربة كاللاتينية والإغريقية والسانسكريتية . ويظهر أن الإعراب ميزة من ميزات اللغات القديمة . ولكننا إذا أخذنا اللغة عامة وجدنا أن الميل هو لإسقاط الإعراب . فمن

= بهذه النظرية مستشرق ألماني عام ١٩٠٥ في مؤتمر الاستشراق الذي انعقد في الجزائر ، واسمه كارل فولرز، ثم أنه وضع نظريته هذه بعد تعريضها بشواهد من القرآن ومن القراءات ، في كتاب معروفه Volkssprache Und Schriftsprache im

Im Alten Arabien (Strassburg 1906 . وقد رد عليه شيخ المستشرقين ثيودور نولدكه في

Neue Beiträge Zur Semitischen Sprachwissenschaft P. Iff (Strassburg 1910 .

ويحسن بمن يهمه هذا الأمر أن يقرأ Paule E. Kahle في .

(1) The Cairo. Geniza on P.P. 78 — 84 .

والنص العربي المعزوف إلى القراء ص ١١٥ — ١١٦ .

(2) The Arabic Readers of The Koran (Journal of Near Eastern Studies, 8, April 1949, PP 65 — 71 .

(3) The Qur'an and The Arabiya (Goldziher ' Memorial PP. 163 — 182 .

اللغات السامية لا نجد لغة معربة سوى العربية الفصحى . قد نجد في هذه وتلك بقايا إعراب ولكن تستطيع أن تعمم القول في أن اللغات السامية (باستثناء العربية الفصحى لا المحكية) أسقطت الإعراب . وكذلك أسقطت اللهجات التي تحدت من اللاتينية كثيراً من الظواهر الإعرابية ، وقد جارت العربية المحكية سائر اللغات في مجراها الطبيعي .

(٢) التطور الصرفي والنحوي :

ولا يسعنا في هذا المقام تعداد الفروقات البينة بين صرف العامة ونحوها وبين صرف الفصحى ونحوها .^(١) إنما نريد أن نؤكد أن صرف العامة ونحوها يمثلان تطوراً نحو الأسهل . فاقصر العربية المحكية على عدد قليل من الضمائر ، وتصريف الفعل ، واستعمال أسمي الفاعل والمفعول ، وصوغ المجهول ، وإهمال حروف كثيرة والاستعاضة عنها بعدد أقل ، وغيرها كثير ، جميع هذه في نظرنا تمثل تطوراً طبيعياً في اللغة يتمشى مع حاجات الحياة . وليس على المرء الذي يشك في هذا الزعم إلا أن يطالع بعض ما كتب في اللهجات العربية المختلفة .^(٢)

ونود أن نمثل على ذلك بناحية واحدة هي « فكرة الزمن في الفعل » أن الذين درسوا اللغات السامية عامة وقابلوها باللغات الأوروبية شعروا — ولا يمكنهم إلا أن يشعروا — أن فكرة الزمن في الفعل السامي غير محددة تحديداً دقيقاً كما هي الحال في اللغات الهندو — أوروبية . ففي الساميات ترتكز فكرة الزمن عامة على إنجاز الفعل أو إتمام الحدث لا على فكرة الزمن ذاته . فإن كان الفعل أو الحدث قد تم فهو ماض وإن لم يكن قد تم

(١) من يعتقد أن العامة لا صرف لها ولا نحو فليراجع كتاب المنسيور ميشال فغالي أستاذ اللغات السامية في جامعة بوردو .

Syntaxe des Parlers Arabes Actuels du Liban, Paris 1923 .

(٢) وأكثر المؤلفين من الفرنجة : ألسان وفرنسين وانكليز وإيطاليين وأوروبيين من جنسيات غيرها ، ونستطيع أن نقول أن جل اللهجات العامة قد درست ودون صرفها ونحوها وأساليب التغيير فيها .

فهو حاضر . ولم تعرف اللغات السامية غير هذين الزمنين باستثناء العربية . (التي هي أحدثها تاريخياً وأدباً) فإنها استطاعت ، بفضل أفعال مساعدة وحروف ، أن تتصرف بفكرة الزمن تصرفاً أفضل من بقية اللغات السامية . ولكن رغم هذا فإن تحديد الزمن في اللغات السامية يقصر عما هو عليه في الانكليزية أو الفرنسية أو الألمانية .

لكن العامة ، التي لم تخضع لأحكام الصرفين والنحويين بل جرت على ألسنة المتكلمين بها جريانها الطبيعي المحتم ، استطاعت أن تعبر عن الزمن وأن تحدده تحديداً دقيقاً . فإن الذين درسوا اللهجات العربية لاحظوا أن جميع صيغ الأزمان الأوروبية لها مماثلها في صيغ الأزمان في العامة العربية . وليس ذلك نقلاً واقتباساً عن الفرنجة إنما مرده إلى طبيعة الإنسان عامة وإلى المشترك في تفكيره وتصوره .^(١)

(٣) - خضوع العامة لناموس الاقتصاد

من أهم النواميس اللغوية الطبيعية — ولن نذكر لك جميعها لأن هذا يقتضينا الخروج عن الموضوع — ناموس الاقتصاد . الاقتصاد في اللغة مبدأ عام ، والاقتصاد جوهر من جواهر البلاغة . اعتبر مثلاً عدد الضمائر في الفصحى (١٤) وعددها في العامة (٨) ولماذا ؟ لأن المثنى سقط ، والمثنى ظاهرة لغوية بدائية ترجع إلى أول عهد الإنسان بالعدد ، وقد سقطت هذه الظاهرة من أكثر اللغات التي كان فيها مثنى لأن ليس له ضرورة . كل ما زاد على واحد فهو جمع . وأسقطوا جمع ضمير المؤنث . وهذا الاقتصاد في عدد الضمائر أحدث اقتصاداً عظيماً في تصريف الفعل ، فعوضاً عن أن نصرف الفعل مع ١٤ نصرفه مع ٨ ، وفي الأمر عوضاً عن ٦ نكتفي بثلاثة فنقول : قوم ، قومي ، قومو .

(١) راجع كتاب فغالي المذكور أعلاه ، ص ٣ — ٨١ حيث يبحث الفعل وقد عزز ذلك بكثير من الشواهد المستمدة من لهجة لبنان الشمالية . ولكن ما يصدق على هذه اللهجة يصدق على غيرها من اللهجات المحكية إلى حد بعيد .

واعتبر مثلاً عدد الكلمات فإنه في الزمن الذي كان الناس فيه يتلمهون
ببهلوانيات اللغة كان للأسد أسماء لا يحضر في عددها ، وللناقة أسماء عديدة ،
وكان للسيف أسماء يصل عددها إلى المئات ، وكان للعسل ما يقرب من
السبعين اسماً ، وبطرس كرامة نظم قصيدة (أمن خدها الوردى افتتك
الحال ...) يكاد عدد أبياتها يقرب من المئة وكل بيت ينتهى بلفظ الحال ،
وفي كل بيت للحال معنى يختلف عن معنى الحال قبله . وكلمة بسيطة مثل
« الرز » ، هذا الطعام الذي نراه كل يوم على مائدة من موائد الطعام ،
له في القاموس أشكال عديدة :

« الأرْزُ والآرْزُ والأرْزُ والأرْزُ والأرْزُ والرْزُ والرْزُ
(بفك الادغام) وربما كان الأصل الأرْزُ بمعنى الانقباض » .

أما في العامية فللأسد كلمة واحدة ، وللسيف كلمة واحدة ، وللعسل
كلمة واحدة ، وانتقت العامية أسهل الألفاظ للرز ، واجمده على هذه النعم !

اللهجة وأسلوب درسها

فوائد دراسات اللهجات :

تعنى الأمم الراقية بدراسة اللهجات الإقليمية وتحرص على تسجيلها وضبط أحكامها وحفظ نماذج أدبية منها ، كل ذلك حباً بالبحث والكشف . وأفضل الدرس ما ليس له غاية نفعية مادية بل ما كانت غايته ذاته . هذا النوع من الدرس الأكاديمي لا يطلب جزاء ولا يسعى في مغنم ، إنما يهدف إلى معرفة الحق وإلى اكتشاف المجهول . وهل أفضل من معرفة الحق وتكشاف المجهول جزاء تجزى به العقول الشغوفة التواقفة إلى المعرفة ؟

غير أننا في هذا الشرق العربي نعيش في فترة تتميز بطغيان المادة . قيمة الأشياء عندنا تقاس بقدر نفعها ، وأهميتها بقدر تماسها بحياتنا المادية . فإننا لم نبلغ بعد ، حتى في الجامعات ، مواطن الفكر ، مرتبة من التجرد تدفعنا لدرس الأشياء لذاتها . ولكن إن كان بيننا من يطلب أجراً أو يسأل عن غنم في درسه اللهجة فإنى أرى في درس اللهجات الإقليمية ، عدا عن لذة المعرفة للمعرفة ذاتها ، ثلاث فوائد :

أولاً : إذا كنا نسلم أن اللغة كائن حي يخضع لنواميس الحياة من نمو وهرم فليس أفضل من درس اللغة الحية (العامية) درساً موضوعياً لفهم النواميس التي تعمل للحياة والنمو والموت . وذلك لأن العامية — عامية أى شعب — لغة حرة متطورة ، والفصحى — فصحي أى شعب — لغة كتابية مقيدة بقواعد ثابتة ومسيّجةٌ حولها بسياج شديد .

ثانياً : نحن من الذين يؤمنون أن في العاميات أدباً شعبياً غنياً ازدرته الاستقرائية الفكرية . ولكنه أدب منبثق عن روح الشعب وأحاسيسه . قد تكون الصياغة فيه بدائية لكن الصور والمعاني جميلة . هذا الأدب في صفوته غنى بصوره ، بنسكاته ، بدعابته ، بأمثاله وأقاصيصه وخرافاته ،

وهو ذخيرة ضائعة ومن الحق أن يظل جوهرة في التراب .

يشكو الناس من جفاف في الأدب العربي ، من ارسقراطية أبعده عن عامة الشعب . وعندنا أن في الأدب العامى مادة للشعر والقصة والموسيقى . وإذا نحن حرصنا على درس هذا الأدب وجمعه وتنقيته فإننا قد نفى أدبنا .

ثالثاً : ونعتقد أيضاً أن في العامية مظاهر لغوية ، صرفية ونحوية ، ومعجمية ، حرية بالدرس . وقد يكون في درسها إغناء للغتنا الفصيحة . إن نظرة القدامى والمحدثين إلى أن العامية لغة رديئة ركيكة ، وإلى أنها تخلف وانحطاط أفسدت على الناس تفكيرهم اللغوى . هل استوعب المعجم العربى جميع المفردات العربية ؟ هل اعترف واضعو قواعد الصرف والنحو بصحة جميع المظاهر اللغوية ؟ نحن نعتقد أن لا المعجم ولا كتب القواعد استوعبت جميع المفردات وكافة القواعد . وقد يكون في درسنا مفردات العامية ما يغنى معجمنا — كما فعلنا عند دراستنا مفردات اللهجة اللبنانية — وفي درسنا قواعد الصرفة والنحوية ما يشجعنا على التيسير والتبسيط .

الأسلوب :

قبل البدء بدرس لهجة محكية ينبغي للباحث أن يكون موقفه من عمله موقف العالم المتجرد عن كل غرض أو هوى . ينبغي له أن يكون أسلوبه الأسلوب العلمى الدقيق ، لأن نتائج كل نشاط عقلى رهن بمبلغ تملك الموضوع مشاعر الباحث وعقله ، وبمبلغ الأمانة والدقة فى الأسلوب المتبع . نقول هذا لأننا نعلم أن بعض الناس ينظرون إلى اللهجات المحكية وعلى عيونهم نظارات ملونة . فهى ليست لغة ، هى لهجة ركيكة تتميز بالبطانة والعجمة ، سقيمة فى تركيبها ، فقيرة فى معجمها ، سقيمة فى أدبها ، سمجة فى روحها . فإذا بدأ الباحث وهذه نظرتة مال عن غير وعى إلى إثبات ما علق بذهنه عن اللهجة .

قلنا سابقاً إن درس اللغة في طريقه إلى كينونته علماً دقيقاً يخضع لقوانين العلم المطبق في حقول أخرى : مراقبة ووصف وتدوين وتجربة وافترض وبرهنة ثم إثبات أن التجارب تؤيد صحة الافتراض بإعلان النتائج قوانين ونواميس عامة . وعلى دارس اللهجة أن يتقيد بالأسلوب ، فلا معطيات مقررة ولا نتائج مسلم بها مسبقاً .

وقد يكون من المبتذل ، ونحن بصدد الأسلوب ، أن نذكر بأن علم الفونتيك (علم الصوت اللغوي) جزء أساسي من علم اللغة العام (General Linguistic) إذ إن على دارس اللهجة أن يدونها ويضبط أحكامها الصوتية والتركيبية ، وقد يصعب عليه الأمر إن لم يكن ملماً ولو إلماً بما يعلم الفونتيك . على أذنه أن تكتسب مراناً في السمع لمعرفة طبيعة الصوت ومخرجه ، وعلى لسانه أن يكتسب مراناً في إعادة الصوت لكي يدون ما يسمعه فونتيكياً برموز يكون قد اختارها لنفسه ، أو برموز من وضع غيره .

وقد تعد مسألة اكتساب المران في السمع والنطق أمراً ثانوياً إذا اعتبرنا مسألة أخطر شأناً وهي تحليل كثير من المظاهر الصوتية والإعرابية ، فإنها يمكن أن تكون عند التحليل الأخير إما تطوراً صوتياً أو انحلالاً صوتياً . كثير من قواعد الإعلال والإدغام وسقوط الإعراب يمكن أن يفسر فونتيكياً ، فعلم الفونتيك إذاً أمر لا مفر منه في كل دراسة لغوية .

ويحسن أيضاً ، قبل الشروع بدرس لهجة ما ، أن ننظر فيما سبق من دراسات حول الموضوع نفسه . فإن الفرنجة درسوا لهجات عربية عديدة وخير للمقدم على درس كهذا أن يلم بما كتب في الموضوع . فقد يكون عنده ما يضيفه أو يعدله ؛ وقد لا يكون هناك متسع للزيادة . فإن الدكتور لور Lohr درس لهجة القدس^(١) والدكتور ماتسون^(٢) درس لهجة بيروت ، ودرس

(1) Max Lohr : Der Vülgärarabische Dialekt Von Jerusalem , Giessen , 1905

(2) Emmanuel Mattsson : Etude Phonétique Sur le Dialect Arabe Vulgaire De Beyrouth , Uqsal , 1910 .

المنسيور فغالى لهجة قرية لبنانية ، كفر عيدا^(١) . فإذا تصدى أحدنا للدرس هذه اللهجات وجب عليه أن يقرأ هذه أولاً كي لا ييذل جهداً في غير سبيله .

الخطوة الأولى

يترتب على ما ذكرناه آنفاً أن تكون الخطوة الأولى عند دراسة اللهجة إعتراف من قبل الباحث أنها لغة قائمة بذاتها لها نظامها الصوتي (Phonology) ونظامها المقطعي (Syllabic Structure) ولها صرفها (Morphology) ولها نحوها (Syntax) . ولها معجمها وبيانها وأدبها . وهم الباحث أن يدرس هذه اللغة درساً وصفيّاً تقريرياً (Descriptive Analysis) لادرساً فلسفياً ، أى ذلك الدرس الذى من شأنه البحث عن العلة والسبب والنتائج . ذلك لأننا ، فى حقل اللغة ، لا نعرف العلة أحياناً وإذا أصررنا على معرفة العلة والنتائج نكون قد خرجنا عن نطاق البحث العلى إلى دائرة الحدس والتخمين .

يشكو الناس ، مدرسون ودارسون . من تعقيد النحو العربى ، ومرد هذه الشكوى إلى أن نحو العربية نشأ وازدهر إبان بلوغ علم الكلام ذروته . فإن مفكرى المسلمين جهدوا فى أن يوفقوا بين قوانين المنطق والفلسفة الإغريقية وبين العقائد الدينية . فى ذلك الجو الفلسفى وضعت أحكام النحو وقوانين البلاغة والفصاحة . وأثر فلسفة العلة والمعلول ظاهر فى علم النحو . زيد فى جملة « زيد غنى » مرفوعة بالابتداء وهو عامل معنوى ، وزيد فى جملة « كان زيد غنيا » مرفوعة على أنها اسم كان ، وزيد فى جملة « إن زيدا غنى » منصوبة على أنها اسم إن ، والماضى مبنى لسبب ، والمضارع معرب لسبب ، ومساجد لا تتون ولا تجر بالكسر لسبب ، وجمع المؤنث السالم ينصب بالكسرة لسبب ، وقد كثرت العلل وتنوعت الأسباب . وقد عزوا ، فى كثير من الأحيان ، العلة لأثر كلمة فى كلمة . ولكن فريقاً من اللغويين لم يرضوا بهذا التعليل . وقد ألف ابن مضاء القرطبي كتاباً سماه « الرد على النحاة » حاول

فيه ددم نظرية العامل . العامل في اللغة هو الانسان ذاته ، وابن مضاء القرطبي يعد في طليعة علماء اللغة المحدثين ، وله الفضل في وضع التوكيد على الانسان . درس اللغة درساً وصفيّاً تقريرياً يقيناً من منزلة الحديث .

الخطوة الثانية

جمع مادة لغوية منتخبة من البقعة المنوى درسها لغوياً . قد يكون دارس اللهجة من أبناء اللهجة فيعتمد في جمع مادته على ما عنده من ذخيرة لغوية . ولكن يخشى في هذه الحال أن تكون لغته قد تأثرت بثقافته وبالبيئة اللغوية التي عايشها في المدينة ، أو في الجامعة ، أو في إقامته بعيداً عن بلده . فإن هذا الاحتكاك باللهجات أخرى وهذا الابتعاد عن البلدة من شأنه أن يترك أثره في بعض العناصر اللغوية والمظاهر الصوتية . فإني نشأت في قرية لبنانية درزية وكانت لهجتي الأولى لهجة درزية بحتة . أما الآن فإني لا أعتبر خير مثال على صفاء اللهجة الدرزية ، فإن ثقافتى اللغوية وسكنائى في المدينة واغترابى إلى العراق وكوفى مدرساً يحرص على صناء لغته وحسن أسلوبه جميع هذه تجردنى من الصفات اللغوية التي يجب أن يتصف بها الدرزي الفح . وإني إذا أردت أن أدرس لهجة الدروز فعلى أن أتعتمد درزياً قروياً يمثل في لغته لهجة الدروز الصرفة .

جمع المادة اللغوية يتطلب (١) مخبراً Informer

(ب) مادة

(ج) أسلوباً

(١) أما المخبر فيجب أن يكون خير مثال على صناء اللهجة . وخير من يمثل هذه اللهجة أبناء القرية أنفسهم رجالاً ونساءً وولداً . على دارس اللهجة أن يكسب ثقة المخبر . فإن وجود غريب في القرية يصحب آلة للتسجيل ويرغب في تسجيل كلامهم مشار للشك والتساؤل . عليه أن يوضح لهم الغاية من تسجيل كلامهم ، وعليه أن يفهمهم أن التسجيل يجب أن يكون طبعياً

فلا تكلف ولا تعمد ولا حذقة . ذلك لأن ابن القرية يشعر عند تكلمه مع ابن المدينة أن عليه أن يتكلم كلاماً فصيحاً مهذباً . وعلى المسجل أن ينتبه إلى هذا الميل إلى التصنع في الكلام . يجب أن يظل المخبر على سجيته وعليه أن ينسى أنه يتكلم في حضرة ابن المدينة أو أمام آلة تسجيل .

وتجدر بنا الإشارة إلى أن البقعة الجغرافية المنوى دراستها لغوياً قد تكون مأهولة بأكثر من أقلية دينية . ويلاحظ أن الفروقات الدينية يتبعها فروقات اجتماعية ولغوية . ويحسن بالمسجل أن يلتقي مخبراً من أوساط مختلفة إذ قد تكون في هذه الفروقات الاجتماعية اللغوية فوائد جمعة .

(ب) أما المادة فقد تكون أحاديث وأقاصيص وأشعاراً عامية وخرافات ومعتقدات وعادات . وقد يترك المسجل الخيار للمخبر أو المخبرين ، وقد يقترح عليهم الموضوع . ويحسن بالمسجل أن يجري امتحاناً قبل التسجيل ليرى أن الحديث طبعى لا تكلف فيه ولا تصنع .

(ج) أما الأسلوب فالتسجيل الآلى . وقدماً كان دارس اللغة يلجأ إلى التسجيل المبني على المشافهة . كان الدارس يصغى إلى الحديث ويدونه برموز فونتيكية — ولكن العلم قد أمدنا بالآلة المسجلة وكفانا النقص الذى يعترى التسجيل الفونتيكى بالمشافهة . فقد تخون الأذن صاحبها فينوته أصوات ، وقد تخونه أعضاء النطق فيحجز عن ترديد ما سمعه بدقة وضبط . أما الآلة الحديثة فإنها تعيد الصوت كما يتلظظ به المخبر وبكل دقة وضبط .

وليس لنا أن نتبسط في وصف الآلة المسجلة فإن أنواعها كثيرة ، وأحجامها عديدة ، والتنافس على صنعها شديد . فترى أنواعاً مختلفة بأشكال مختلفة وبأسعار متفاوتة . منها ما هو صغير الحجم رخيص الثمن (٥٠ - ١٥٠ جنيه مصرى) خفيف الحمل ، ومنها الكبير لدور الإذاعة وللخبرات . ومن حسنات التسجيل على الشريط تمكين الدارس من سماع اللهجة مراراً وتكراراً ، ومن حسناته أيضاً تسجيل أشرطة عديدة لأفراد عديدين يمثلون

مختلف الطبقات الدينية والاجتماعية . فلا يتيق على دارس اللهجة إلا أن يصنع شريطة في الآلة ويجلس للاصغاء وتدريب الملاحظات .

الخطوة الثالثة

دراسة اللهجة دراسة استقرائية (inductive) وصفية تقريرية (descriptive) بناء على ما يتجمع عند الدارس من مادة سجلها أو جمعها بطريقة الخاصة . ويحسن أن تكون دراسة اللهجة على مراتب :

(١) مرتبة الصوت Phonology

(ب) مرتبة الصرف Etymology

(ج) مرتبة التركيب أو النحو Syntax

ولا يقف حد المراتب عندهذا العدد . فكأن تدرس اللهجة أيضاً على مرتبة المعجمية (Lexical level) ومرتبة التركيب المقطعي (Syllabic structure) ومرتبة الأسلوب وبدخل فيه نواحي البيان والبلاغة ، ولك أن تقتصر على المراتب الأساسية الثلاث التي ذكرناها أعلاه .

(١) مرتبة الصوت

لكل لغة أصواتها اللغوية التي يطلق عليها مصطلح علمي « فونيم » ، وجمعها فونيمات تميزها عن سائر الأصوات الطبيعية التي لا تدخل في نظام أصوات اللغة . ليس كل صوت هو صوت لغوي . ولا يتوهم أن عدد فونيمات اللغة يتفق عدداً مع حروف هجاء تلك اللغة . كلا فإن فونيمات اللغة أكثر عدداً من حروف هجائها . فالانكليز عندهم فونيم ث ويرمزون إليه ب Th وعندهم فونيم ذ ولا رمز خاص له . ناهيك عن أن للفونيم الواحد ظلالاً من التغيرات الطفيفة التي تطرأ عليه تبعاً لوقوع حرف ما قبله أو بعده . إذا وضع رموز فونيكية شاملة لنقل أصوات اللغة بدقة وضبط أمر ضروري جداً .

وتجدر الإشارة إلى أن الحرف العربي الخالي من الحركات المصوتة

لا يصلح رموزاً فونتيكية دقيقة لنقل أصوات لهجة عربية أو لغة غير عربية . وذلك لأن حركات اللغة العربية الأصلية ثلاث : قصيرة وهي u.i.a وطويلة وهي u.i.ā ولكن اللهجات العربية المحكية واللغات الأجنبية أخفى في نظامها الصوتي فهناك e و e و o و o وهناك أنواع مختلفة للنظ a فإنه في سار غيره في صار و u في سور غيرها في صور . فكيف نستطيع أن ننقل هذه الأصوات بالحروف العربية وبالحركات العربية ؟ إن هذا غير ميسور . علينا حتماً أن نلجأ إلى الحرف اللاتيني إلا إذا أردنا أن نضيف إلى الحروف العربية رموزاً جديدة لفونيات لا وجود لها في النصحي .

أما الأنظمة المتبعة في نقل الأصوات اللغوية من لغة إلى أخرى — ويسمونها Transliteration — فكثيرة ومتباينة . لكل أمة نظامها ، أو بالأحرى لكل مؤسسة علمية نظامها الخاص . فالموسوعة الإسلامية لها نظامها ، وقاموس أوكسفرده له نظامه ، والجمعية الجغرافية الملكية لها نظامها ، ومجلة Z.D.M.G. لها نظامها ، وغيرها كثير . غير أن أفضل هذه الأنظمة جميعاً في نظرنا هو النظام المعدل^(١) الذي أقرته جمعية الفونتيك الدولية : The International Phonetic Alphabet فإنه نظام شامل يستطيع المرء بواسطته أن ينقل كل صوت لغوى في العالم . ومن جملتها اللهجات العربية . وقد لا يرضيك هذا النظام أو ذاك بل تفضل أن تضع نظامك الخاص . فإني لا أعرف دارساً للهجة لم يضع نظامه الخاص . ولا اعتراض على هذا ، شريطة أن تضع ثباته في أول الدراسة ، وشريطة أن تتبعه بدقة ونظام كي لا تشرش على القارئ . ومن قبيل الاقتراح فقط نثبت لك نظامنا الخاص في نقل اللهجات بالحرف اللاتيني :

رموز صوتية

افتراح

الحروف الصامتة Consonants

الرمز مقابلته بالعربي

? or 3 همزة

b ب

t ت

o or Th ث

j ج

g ج مصرية

h ح

x or Kh خ

d د

d or dh ذ

r ر

z ز

S س

v or sh ش

S ص

q ض

t ط

z or z ظ

الحروف الصامتة Consonants

الرمز مقابلته العربي

gh or ل as it is in Arabic (حرف g اليوناني)

f ف

q ق

k ك

l ل

m م

n ن

h هـ

w و

y ي

ai ع

aw و

f or c or ع as it is in Arabic

الحروف المصوتة

Vowels

القصيرة	الطويلة
a دارس في مثل <i>daras</i>	ā باع في مثل <i>baʿ</i>
i لبس في مثل <i>libs</i>	ī ثين في مثل <i>tīn</i>
u ربع في مثل <i>rubʿ</i>	ū روس في مثل <i>rūs</i>
e رايح في مثل <i>rayeh</i>	ē فين في مثل <i>fēn</i>
o كتابكُن في مثل <i>kitaäbkon</i>	ō لون في مثل <i>lôn</i>

ملاحظة عن الحروف المصوتة

من المعروف أن لهذه الحروف أكثر من لفظ واحد فإن a في كتاب سماع، رايح ماضى تختلف. فانها في كتاب وسماع مالة إلى حرف e بينما في رايح وماضى مالة إلى o أى إلى التفتيح. وعليه يجب على دارس اللهجة أن يضع ل a المالة رمزاً وللمفتحة رمزاً آخر هكذا:

(على سبيل الاقتراح) \hat{a} ā

وكذلك إذا لحظ دارس اللهجة أن هذه الرموز لا تكفي للدلالة على حركات اللهجة عليه أن يضيف إليها رموزاً أخرى أو يكتفي بهذه مع إضافة فارق كما هو متبع في كتب المستشرقين الذين درسوا اللهجات.

إن دراسة اللهجة في هذه المرتبة، مرتبة الأصوات، تتناول أخطر ناحية في اللغة وأكثر الظواهر تعقيداً، وذلك لأن اللغة مجموعة أصوات تتعرض للتغير الدائم. وأول خطوة في هذه المرتبة تقسيم الأصوات إلى قسمين طبيعيين: الحروف المصوتة والحروف الصامتة فيصف طبيعتها ومخرجها وما يطرأ عليها من تغييرات تبعاً لوقوعها في الكلمة وتبعاً لما يسبقها ولما يتلوها من حروف. ثم يدرس قضية النبرة (accent) التي لها بعرها لغويو العرب أقل.

انتباه فإنها على جانب من الأهمية وذلك لأثرها في طول الحركة وقصرها واختلاصها .

(ب) مرتبة الصرف

وتستعمل كلمة الصرف هذا المعنى الذى تتضمنه اللفظة العربية Morphology أى العلم الذى يعنى بالشكل والبناء وبالتغيرات التى تطرأ على الكلمة المفردة من سابقة (Pr.fix) وواسعة (infix) ولاحقة (suffix) ومن تصريف مع الضمائر ومن إعلال وإدغام . هذه الظواهر تقع فى حقل اشكل والهيئة (morphology) . فإذا كان درس اللهجة فى هذه المرتبة يتناول الكلمة المفردة وجب علينا إذن أن نعيد تقسيم الكلمة على أسس جديدة . ونحن تؤثر تقسيم الكلمة المفردة إلى ستة أبواب :

(١) الفعل

(٢) الإسم

(٣) الصفة

(٤) الضمير

(٥) الظروف

(٦) الأدوات^(١)

ولأبأس فى إسقاط الباين الأخيرين ، الظروف والأداة ، فى هذا الطور من الدراسة وإرجائهما إلى مرتبة التركيب (النحو) وذلك لأن أكثر الظروف مبذية ، وجميع الأدوات مبذية ، ومعنى هذا أن شكلها لا يتغير فلا تدخل فى باب الصرف (morphology) لأن علم الصرف يعنى بتغيير الشكل ، وأشكال هذه لا تتغير ، إنما عملها فى غيرها ، فى التركيب .

ولا يسعنا التبسط فى درس هذه الأبواب لأننا فى معرض درس الأسلوب . ولذلك نكتفى بمخطط لدرس الفعل يكون نمطاً يقاس عليه سائر

(١) يدخل فى هذا الباب جميع أنواع الحروف .

الأبواب . فإنى إذا أردت درس الفعل ، فى مرتبة الصرف^(١) فإنى أدرس النواحي التالية :

(١) أوزان الفعل

(ب) تصريف أوزان النعل ماضياً ومضارعاً وأمرأ .

(ح) ما يشتق من النعل : اسم الناعل والمنعول واسم المكان والزمان والآلة والمصدر .

ونقتصر على ذكر أوزان النعل فى لهجة قريتنا (رأس المتن) وهى قرية لبنانية أكرتية ساكنها من الدروز . فقد وجدنا من دراسة نصوص جمعها ، أن أوزان الفعل فى لهجة هذه القرية المتباينة هى :

(١) المجرد الثلاثى فعل : كتب شرب مشى نسى (مشى نسى) قام ، عدة رعى (رعى) قرأ .

(٢) فَعَل مثل علم .

(٣) فاعل مثل سائر جاهر .

(٤) افعل لا وجود له بل يلاحظ أن كل افعل فى النصيح يصبح فَعَل

فى هذه اللهجة مثل تلف طعم تعب تقن (بدلا من أتلِف وأطعم وأتعب وأتقن) .

(٥) تَفَعَّل مثل تكَلَّم .

(٦) تَفَاعَلَ مثل تقاتل .

(٧) أَفْتَعَلَ يصبح فَعَعَلَ مثل نكسّر تَجَرَّح .

(٨) اِفْتَعَلَ يصبح فَعَعَلَ مثل حَتَّعَلَ .

(٩) افعل فقط من الألوان ويصبح فَعَل مثل حمرة .

(١٠) استفعل ويصبح سَتَفَعَلَ مثل سَتَخَذَم .

(١١) الأفعال الرباعية وهى كثيرة فى لهجة لبنان وقد وجدنا أن المجرد

(١) لأن درس الفعل يدخل أيضاً فى مرتبة التركيب (النحو) .

الثلاثي يصبح رباعياً بإضافة حرف إلى الثلاثي . بعض هذه الحروف التي تزداد : ي و ن ر م ب ش فيصبح لدينا أوزان مثل : فَيَنْعَل (أو فَعْنِيل) فَوْنَعْل (أو فَعْنَوَل) ففعل ، فرعل ، فيعل (أو فَيَل مثل غَلِط) . شَفَنْعَل مثل شَقَلْب وشَلَهَب . وهناك أوزان أخرى مثل فَنَعْلَن بإضافة النون في آخر الفعل مثل رَوْنَح ، تَرَوْنَح عَشْشَوْن .

ثم إن هذه الأوزان يجب أن تدرس عند ما تصرف مع الضمائر ماضياً ومضارعاً وأمرأ . ثم يجب النظر في المشتقات : اسمي الفاعل والمنعول والمكان والزمان والآلة والمصدر من جميع هذه الأوزان . ويجب أن تكون هذه الدراسة مبنية على شواهد من المادة المسجلة أو المسموعة .

(ج) مرتبة التركيب أو النحو

وجوهر اللغة التركيب . توضع المفردات وتهرم وتموت ويحل محلها مفردات جديدة ولكن العنصر الثابت في اللغة التركيب . تستطيع أن تتعلم مفردات لغة أجنبية كما أثبتها القاموس ولكنك إذا لم تتعلم قواعد التركيب فإليك لا تستطيع أن تقول شيئاً في هذه اللغة سوى الإشارة إلى الأشياء مع ذكر الألفاظ الموضوع لها وذلك لأنك لا تعرف التركيب . إذاً التركيب جوهر اللغة . إنني إذا أردت أن أدرس التركيب (النحو) في لهجة ما فإني أتبع المخطط التالي :

(١) صيغ الفعل الزمنية : الماضي والحال والاستمرار والمستقبل .
ويدخل في هذا الباب استعمال اسم الفاعل للدلالة على الزمان مثل ماثنى وراكب .

(ب) الجملة البسيطة والمركبة (الإخبارية والإنشائية) .

(ح) الاستنهام والتوكيد وأدواتها .

(د) المطابقة : الفعل لفاعله والصفة لموصوفها ، والمفاضلة مثل غنى ، أغنى من ... ، أغنى الناس .

(هـ) الموصول .

(و) أفعال مساعدة .

(ز) الظرف .

(ح) أسماء العدد وأحكامه .

(ط) الأدوات ومعانيها واستعمالها .

هذا مخطط عام لدراسة اللهجة . وقبل أن ننهي الكلام عن الأسلوب نذكر الباحث أنه قد يتناول في درسه مرتبة أخرى من مراتب درس اللغة فقد ينظر في معجم اللهجة ، وقد ينظر في أساليب البلاغة فيها ، وقد يعني بأدبها وبمجملته ونثره ، وقد يكتفي بالناحية اللغوية الصرفة كما ذكرنا في المخطط . ولا يفربن عن البال أن كل ناحية من نواحي اللغة ، لا بل كل ظاهرة بسيطة تتطلب تقصياً وجهداً . فإننا نعرف علماء حصروا جهودهم في ناحية ضيقة كأن يدرس الواحد منهم الفعل فقط أو الاسم أو حرف الهمزة وما يطرأ عليه من تقلبات . إذاً يحسن بدروس اللهجة أن يكبح جماح طموحه فيقصر درسه على ناحية محددة فيدرسها درساً مركزاً لا يبقى معه مجال للمستزيد .

جغرافية اللهجات

ومن الدراسات الطريفة المتعلقة بدراسة اللهجات وضع خرائط لغوية تبين الفروقات اللغوية التي تتميز بها بقعة عن أخرى . ففي لبنان مثلاً طريقتان للتلفظ بحرف القاف . منهم من يلنظله على طريقة العربية النصحى ق . ومنهم من يلنظله همزة ، فيقولون « إلتكؤ » (أى قلت له) « و قلنتكؤ » . وهناك ظاهرة أخرى في لبنان وهي أن بعض المسلمين في بعض المناطق يلنظنون القاف كافاً حتى في قراءة العربية الفصحى ! وبعض اللبنانيين ، عند تعبيرهم عن صيغة الزمن الخالي عندما يكون الفعل أو الحدث مستمراً ويقابله (Present Continuous) يقولون « عم يأكّل » ، ولكن بعضهم يقول « من يأكّل » ، أى هو في سياق عملية الأكل . فإذا أراد دارس اللهجة أن

يبين للناس مواطن القاف النصيجة ومواطن القاف المتغيرة إلى همزة ، ومواطن د عم يا كل ، ومواطن د من يا كل ، فليس عليه إلا أن يأخذ خريطة للمنطقة الجغرافية ثم يبين على الخريطة المواقع التي فيها تبدو الظاهرة اللغوية التي هو بصدددها . وقد يرسم خرائط عددها عدد ما يتخذه من مظاهر لغوية انتقاها لنفسه . فقد يأخذ تركيباً غريباً ، أو لفظة غريبة ، أو أصواتاً لغوية غريبة ، ويتعقبها على الخريطة . ولن يتم له ذلك إلا بعد أن يكون قد زار المناطق هو بنفسه للتأكد من صحة الأمر . وانا لنجد في البلدان التي تمنى بدراسة لهجاتها العامة عدداً كبيراً من الخرائط اللغوية لكل ظاهرة لغوية فريدة . فإنك قد تجد في فرنسا مثلاً خريطة لحرف الراء ، حرف الراء حيث يلفظ كما يجب أن يلفظ حرف الراء ، وحرف الراء المتغير إلى غ . قد يرغب أحدكم في دراسة حرف الجيم مثلاً وكيف يتغير النطق به في مختلف البقاع العربية فظهر الخريطة وإذا بمصر تقع في المنطقة حيث يلفظ به g والعراق حيث يلفظ به di ولبنان حيث يلفظ به l .

اللهجة اللبنانية

مقدمة تاريخية

كان لبنان نهاية مطاف أقليات عديدة ، عرقية ولغوية ودينية ، نزحت إليه هرباً من اضطهاد ، فوجدت في وديانه وجباله حى تستطيع فيه العيش بأمن وحرية . وقد حافظت هذه الأقليات على عاداتها وشعائرها وطقوسها ولهجاتها . ولذا كان لبنان معرض أزياء وعاءات ولهجات .

وقد مرت هذه البقعة الجغرافية في أطوار تاريخية مختلفة ، وعرف أهلها ، إلى جانب اللغة الأصلية ، لغات أخرى عديدة ، مصرية ، حثية ، بابلية ، آشورية ، فارسية إغريقية لائنية ، عربية ، تركية ، ولكن تعاقب هذه اللغات لم يكن لينازع اللغة الأصلية الآرامية (باستثناء العربية التي حلت محلها تدريجياً) التي لا تزال آثارها في أسماء القرى والمدن وفي اللهجة العربية المحكية في لبنان .

والآراميون بمجموعه قبائل سامية توطنت سوريا والعراق وشمالى الجزيرة العربية ، وجمعهم تشكل الموجة السامية الثالثة التي اجتاحت الهلال الخصيب ، طلباً للهاء والمعى . وأول ما نلتقى بهم فى التاريخ نجدهم بدو رحلا فى شمالى الجزيرة العربية . ثم إنهم حوالى ١٥٠٠ ق . م نزلوا شواطئ الفرات الأوسط ومن هناك اتجهوا غرباً نحو سوريا ولبنان . ولم يكونوا قبيلة واحدة بل بمجموعة قبائل متحاللة ، منها قبيلة الخبيرة التى يرد ذكرها كثيراً فى رسائل تل العمرنة ، تلك الرسائل التى بعث بها أمراء سوريا ولبنان وفلسطين إلى امنحوتب الثالث والرابع طلباً بالإمداد العسكرى لصد هجمات البدو الزاحنة من الشرق والجنوب . ولكن مصر آن ذاك كانت غارقة فى نزاع دينى . وقد أسس الآراميون دويلات أو إمارات عديدة شأنهم فى ذلك شأن الموجات السامية الأخرى التى لم تستطع أن تتوحد ، فكان العنصر الصحراوى

القبل عميق الأثر في الحياة السياسية . وتذكر لنا أسفار التوراة — والتوراة مصدر تاريخ قيم لدراسة الشرق الأدنى القديم — جملة من هذه الدريالات منها آرام نهر ايم (أى العراق القديم) وآرام دمشق (أى سوريا وقد سميت بالاصمة دمشق) وآرام صوبا في سوريا المتوسعة وآرام معكة في فلسطين . وليس لنا أن نساير هذه الدريالات في تاريخها السياسى ، إنما يه منا من أمرها ذكر حقيقتين : أولا إن الآراميين هم الذين نشروا الهجاء الذى وضعه الفينيقيون في جميع أنحاء الشرق الأدنى فإن لغتهم حوالى ٥٠٠ ق . م . أصبحت اللغة العامة الرسمية (lingua Franca) في جميع أقطار الشرق الأدنى القديم . فقد حلت محل الكنعانية والعبرانية . وكانت لغة السيد المسيح على الأرض الآرامية لا العبرية كما يظهر من التنف القليلة التى نقلت عن لسان السيد المسيح . وقد جعلها الفرس اللغة الدبلوماسية . ثانياً عندما تنصرت هذه الشعوب الآرامية — ويدعون أن تنصرهم حدث بعد موت المسيح مباشرة — غيرت اسمها من شعوب آراميه إلى «سورية» ومن لغة آرامية إلى لغة «سورية» وفى مصطلحنا اليوم سريان وسريانية . وذلك لأن هذا الاسم «آرامى» كان يذكرهم بوثنتهم ، وفى العبرية لفظة آرامى معناها وثنى . وقد كان تنصرهم سبباً فى وقوعهم تحت تأثير الهليينية فكانت الإغريقية واللاتينية من اللغات التى تدرس فى مدارسهم . وقد ترجموا إلى السريانية كثيراً من كتب الرياضيات والطب والفلسفة . وفى العصر العباسى لعبوا دوراً هاماً فى الترجمة وفى نقل الفكر الإغريق إلى اللغة العربية . غير أنهم فى القرون الثلاثة أو الأربعة السابقة لظهور الإسلام انقسموا على ذراتهم حول آراء دينية لاهوتية تتعلق بطبيعة المسيح ومريم العذراء وطقوس الكنيسة فانقسموا إلى كنيستين شرقية وغربية يعقوبية . وكان لهذا الانقسام الدينى أثره السياسى واللغوى .

إن لغة لبنان قبل النتح العربى كانت لهجة سريانية أى آرامية ، وطابع هذه اللغة ظاهر فى أسماء القرى والمدن وفى مفردات اللغة ، وأهم من هذا كله فى تركيب اللغة .

يظهر أثر الآرامية في لهجة لبنان في : لفظ الحروف فحرف 'الذال' أصبح دالا فيقال كذاب^(١)، وكل ثاء أصبح تاء . وأدخلت حروف مصوتة جديدة o o e e القصيرتان والصويلتان .

وفي الضمائر فإن اللبناني عندما يقول (ena) فإنما هو في الواقع يلفظ (ena) السريانية ، وعندما يقول كتابو كتابهن (أو كتابن) وهي (هم) فإنه يتألف هذه الضمائر كما كانت في اللغة الأعلى ، إذ يصب على أى شعب يتخذ لغة الناطق أن يبنى النماذج اللغوية الأصلية في لغته .

الفعل : ويظهر أثر الآرامية في الفعل ، في كسر حرف المضارعة وفي صيغة الأمر وفي حركة الناقص في صيغة الماضي (رمى غنى) .
المفردات : ويظهر أثر الآرامية في كثرة عدد المفردات الآرامية الباقية في اللغة المحكية فإن عددها يصل إلى المئات وهو جزء من صميم الحياة اللبنانية القروية .

التركيب : أما أهم أثر للآرامية فهو في التركيب . وقد قلنا سابقاً إن التركيب جوهر اللغة . فإليك عندما تقرأ نصاً سريانياً وتترجمه ترجمة حرفية يتبادر حالا إلى ذهنك التركيب اللبناني العامي . ومن هذا التركيب ما يعرف بلغة أكلوني البراغيث فإن هذا التركيب سرياني فصيح وعليه نقول في لبنان أنجوا الضيوف وطعموني الجيران غيب . وعندما يقول اللبناني شفتو لحيك وأكاتها للتشاحة فإنه يستعمل مفردات عربية في تركيب سرياني فصيح . وعندما يقول اللبناني بحب أشغل وبريد آكل ولازم يحى فإن حذف « أن » التي تتوسط بين الفعلين متأثر بالتركيب السرياني .

ولكن ، ذكرنا لكم سابقاً ، أن علم اللغة الحديث يتغاضى عن معرفة الأسباب والعلل ويترك التاريخ جانبا . هم دارس اللغة وصفها وصفاً استقرائياً تمييزياً ، ولذا سنختم أحاديثنا بنماذج من اللهجة اللبنانية نثراً وشعراً ، تاركين لكم أمر دراستها على ضوء ما ذكرناه لكم عن أسلوب دراسة اللهجات . ولا بد من الملاحظة أن كتابة أية لهجة عربية بالحرف

(١) حسب نطق الموازنة في شمال لبنان .

العربي الخالي من الحروف المصوتة لاتساعد القارىء على قراءتها قراءة صحيحة، وكان الأولى بنا أن نكتبها لـ كم بالحرف اللاتينى كما اقترحنا آنفاً على دارس اللهجة ، ولكن خوفاً من مشاكل الطبع سنكتبها لـ كم بالحرف العربي .

من «رسائل شموثة»

(نشرت تباعاً فى مجلة الدبور الأسبوعية سنة ١٩٢٨)

ومرسائل شموثة ، قصة قروية تصور تطور الحياة الريفية والمدنية فى لبنان . وهذه القصة مكتوبة باللغة العامية الجبلية ، ولكن بما أن كتابة العامية بالحرف العربي أمر غير ميسور فإن القارىء يحتار فى قراءتها ، أهى عامية أم نصيحة ؟ وقد اخترنا أن نكتبها كما هى مطبوعة فى الكتاب على أن نعيد كتابتها بالحرف اللاتينى لتظهر حقيقة النطق الذى أراداه المؤلف حنا الخورى الذعلى .

أما القصة نبسيسة جداً فى حداثتها . تدور القصة حول فتاة بقيمة الأب اسمها شموثة . تزك شموثة القرية رغم إرادة أمها وعمها وتهبط إلى المدينة لتعمل خادمة فى بيت من بيوت الأغنياء . وقد كان وقع الحياة المدنية على هذه الفتاة الأمية الساذجة الماهرة شديداً فلم تقو على مقاومة التجارب الغنية التى تعرضت لها . وبعد اختبارات مرة تعود شموثة إلى القرية نادرة نفسها للخدمة المجانية فى المستشفى زهداً فى الحياة وتكفيراً عن زلتها .

وأثناء إقامتها فى بيروت كانت تبعث برسائل إلى أمها فى القرية تصف فيها وصفاً واقعياً الانضباطات التى تركتها المدينة فى نفسها . وكانت أمها ترد على هذه الرسائل وتكثر فيها النصيح والإرشاد والتحذير من مغبة الاسترسال فى حياة المدينة . فجاءت هذه الرسائل سجعاً صادراً لحياة القرويين فى القرية ولحياتهم إذا هبطوا المدينة . وإليك مثالين على هذه الرسائل : الرسالة الأولى من شموثة إلى أمها تعلمها أنها أخيراً قررت « السترة » فارتضت أن تزوج من لبنانى عائد من أميركا الجنوبية اسمه « ميك » ، أما اسمه قبل هجرته فكان « مخول » وميك كبير السن على شئ من الغنى وطيبة القلب . والرسالة الثانية من أم شموثة وفيها تبرع عن القلب الذى يساورها من جراء التأخر فى إخبارها عن يوم العرس وتلاح الأم على ابنتها أن تستخير الله ولا تتردد إذ ليس لها الآن إلا « السترة » .

« شمنة مخطوبة »

والدق الحنونة

مثلا بتغيب شمس المسا بالضيعة هيك يا والدق صرت أشعر أن أيام
العزوية عم تغيب شمسها .

من اليوم بلشت أشعر بدقة قلب ورجفة بالمناصل ، وإذا كان الاستعداد
للزواج هيك قديش بدها تكون العيشة صعبة فيه .

المثل بتقول : لما بتخلق البنث بتبكي عتبة البيت وتحنن . وكان بقول
المثل : بتحنن البنث وبتخلق هما معا . الحق مع الأمثال وما في مثل كذب .
البنث بتتعب أهلها كف ما كانت . إن كانت حلوة بتتعبهم ، وإن كانت
شذيفة بتتعبهم . بالأول يكون همها تزوج ولما بتزوج بتتجمع عليها كل الهموم .
رزق الله لمن كتنا بنات صغار ما نهم بغير الأكل وشم الهوا . نهم
تعمل من الشرايط لعب . نهم بلعبة الحبل ، نهم بلعب اللقوط . خبزنا
مخبوز ومويتنا بالكوز .

كبرنا ما شاء الله ولما كبرنا كبر الهم معنا . صحيح لعبنا وضحكنا وقضينا
أيام حلوة لكن بلشت الأيام السوداء .

الحذ كان يوم الخطبة اليوم إلى كل بنت بتنذر نذر حتى توصل لو ،
وأهلها ما يصدقوا إيتا يحيى ها اليوم . وأنت مقنورة مثل باقي الأمات من وقت
ما كبرت وأنت ناطرة هل اليوم — ومن حسب أنك بدك تكوني أنت
بيلاذ وأنا بيلاذ ؟

كنت مفتكرة يوم خطبتي تمزى القرايب وأهل الضيعة وتزى بونا
الحورى حتى يصل على الأراعى . ويحيى عمى بوسركيس يلبنى خاتم الخطبة
يايدر . وبتعملى العازيم معكرون وتقدمى لهن تين وجوز . وبتبدي قول
القرادى والمعنى . وبتمسكى ها الكباية وتشربى عرق كرمال المعزومين ،
وبرقصى وبتضحكى وبتقولى : « إن شا الله منكافيم وقت فرحة ولادكن ،

والعزائي نفرح منهم ، وإلى ما عندهن نقشع لن . ، ثاني يوم ييجو بنيات الضيعة وبقولك شوبدك يا أم شموته ، شو ييلزمك حتى نساعدك ؟ . كهي بتخيط محرمي وهذيك بتحيك خرج يمامنديل . كلّو هذا راح كانوا ما كان ، وبعد جمعة بتصير شموته كأنها ما كانت . والجاجة جنازة . لكن ما لقيت ليلة الخطبة ثقيلة لأنني هيك كنت منتظرة . ضحكت وتصنعت وعملت حالي مبسوطه ، لكن إن ضحكت على العالم بقدر أضحك على نفسي ؟

مهما كبرت نفسي بظل أشعر إني زغيرة . مهما تحسنت وتبودرت بقدر شيل تجعود وجي ؟ مهما قالوا الناس غني مليحة وآدمية ياهل ترى بقدر أنكر إني ما . . . بقدر رد حكي الناس غني ؟ آه يا أمي كل شيء يتعوض ، المال يتعوض ، خسارة الأهل والرزق بتعوض لكن الشرف ما بظن إن خسرو حدا يتقدر يعوضو ، وخصوصا البنات ما بتقدر تجمي غلطتها .

كل ما شفت شب يما رجال كان لي معو سابق معرفة بحس كأن حربته عم تشك في خاصرتي . وصرت شوف إن كل الناس عيون عم تطلع في . كاني بسمعهم عم يقولو : و لك كهي ما كانت صانعة بيت فلان ؟ مش هي ال كانت تحاكي الدكنجي ؟ هي صفنا هي نعتا لكن ال بسليني يا والدتي إن المتلي كتار وكتار إلى وقعوا وقعة أكبر من وقعتي .

بكرا يعرفو بنيات الضيعة إني انخطبت . قل لي هن مثل ما بتقول كل أم عن خطيب بنتها : إن شاء الله لكن بتحظو حظوة شموته !

خبرهن إن ليلة الخطبة كانت ليلة حلوة كثير ولو ما يكون في مانع حداد من جهة الخطيب كان عزم كل أهل الضيعة . قولي هيك — هذا الدارج في بيروت ، وسلي الحمي بقشر البطيخ ووعدهن إنك بتشيلي الفرق يوم العرس .

هذا إلى بخبرك بالاختصار . أما من خصوص ميك بتشوفيه مش مصدق إن كنو خطاب يما لا . بقصّ وبجيب وييعزق مصريات من غير داعي . كانت سهرتو للساعة ثمانى صار يغطها للساعة حدعش وليالى للساعة تنعش .

بالحقيقة إنه بسلي . ييقعد يخبرك شو صار له بأمركا وشو شاف بالنهار ومن
حاكاه ومن حاكى ، وأم الياس بتحب الخبار . ومرة سمعت لك ياه عم يتساير
مع أم الياس . قلها

كنت مفكرة أطلع لى شى مشوار شق عليك لكن بالحقيقة ما بقالى
عين أطلع للضيعة . واصل لك شوية مصارى ، مصروف الهنا . وأنا
لو تزوجت مش ممكن أنخل عنك . بها الجمعة الخياطة بتخلص ولحد هلق
ما قررنا وين يكون الإكليل . راح أعمل جهدى ت ابعت جيبك لعندى
بعد ما نصقى على رأى .

ما فى لزوم تخبرى عنى شى . صحى مايحة وطمتنى عنك بها البرد ،
لفلنى حالك مليح لأن شهر شباط شهر منحوس ولا تنسش انو شهر
عجائز كان .

بنتك شمونة

« طارت شمونة »

ولدنا العزيز شمونة

رأنا العجب يا شمونة . صر لى زمان منتظرة مكتوب الإكليل ولحد
هلق ما حظيت بمكتوب ولا عرفت شو جرى ولا شو صار .

كل يوم عمك بو سر كيس بقلى اليوم منواف حالات نزل نهنكى .
شو القصة ؟ شو الحكاية ؟ العسى ما يكون حصل شى يشغل الفكر . بس
ما يكونو المبغضين خوطر ولو فكره لعريسك أو تكونى أنت تغيرت فكرك
بنصحك يابتي وباكل من بيتنا . لا تقلبى ولا صرارة . ااكل على الله
ولا بقا تغيرى فكرك . مين بذك تنطرى ؟ شو فكرك راح يجى ابن السلطان
عبد الحميد بعد ياخذك ؟ هذا حظك وهذا نصيبك .

بعد ما تتجوزى بتشوفى ، وتبقى قولى أمى هالخرفانة حكى . كتار قبلك

علقوا علقتك وصاحبهم مثل ما صابك ، بالآخر رجعو ستروا حالهن وعاشو
بخوف الله ، ما حدا عقل وندم ياشمونة . أنا بهمني تتجوزى تتكنى لسانات
العالم عنك . بتاخذى ميك ، بتاخذى غيره ، مش فارقة معى . الى بتجوزيه
الك اتى . لا راح أنا بشجوزو ولا عمك بو سر كيس . نحنا تجوزنا
وشبعنا جازة . حاج بقا يا بنتى ! جرسونا أهل الضيعة . وانت مش قاعدة
هون تتسمعى بذيتك . انطبلت الأرض بقصتك . كل شىء يتعوض من
عدا الشرف .

روحى تجوزى واعملى صالحك وتركى بيروت . الله بيعت لها زلزلة ،
ربت بقلبي علة وما لها درا .

الله يوجه لك الخير يا بو سر كيس قديش قتللى حتى ودى وراك ورجعك
وانا قلو : لا ، لا ، أنا بعرف شو مرباية وشو فى عندى . تفسيرها مسختينى
وجر صتينى . وأكثر من هيك ما راح باكتب لك لفهمك كفاية .

أملك الخنونة

أم شمونة

ما لحقت خلصت المكتوب أم شمونة حتى سمعت حس عجقه . افكرت
حدا جاني يسهر . لكن من بدر يبحى بها الليل والنلاج للطواقى ؟ من الخاصيته
يقوم من حد المنزل ؟ اخيرو قامت فتحت لقت شمونة ومعها شب مللفين
بالعبى . شهقت أم شمونة وغميت . طبت شمونة ع صدر أمها تبوسا وتحاكها
وتتملا قومي شوفى بنتك ، قومي تعرفى ع هالشب الظريف . بعد الجهد
الجهيد وعيت الأم وما عادت عرفت كيف بدا تبوس بنتا .

— إياه احسن هذا يما ميك ؟

— الله يرضى عليك يا بنتى ويوفقك . هذا مش الدكنجى الى كنت

تكتيلى عنو ؟

— هذا هو بعينه وبعيناتو !

— وميك شو صفت حواله ؟

تركتو سهران هو وام الياس .

أغاني الضيعة

وهي مجموعة أشعار عامية نظمها الشاعر الشعبي إميل مبارك ، ابن الضيعة اللبنانية . وقد أجاد الشاعر في وصف القرية اللبنانية كما كانت القرية أيام جدودنا . ولكن الحياة تسير بسرعة والمدنية الغربية تغزو القرية الثانية الرابطة على القمة والمختبئة في بطن الوادي . والجيل المخضرم أمثال الشاعر إميل مبارك يشعر بحنين مشوب بأسى على تلك الحياة القروية الهاتئة . وستبقى هذه الأشعار سجلا خالداً يقرؤه أبناء القرية بعد أجيال فيتعرفون إلى الحياة التي كان يحياها أجدادهم .

نتفة خورى

على البحر المزدوج ذى الدعامتين وعدد المقاطع في الدعامة الواحدة ٧

يا ما نظملاك أشعار
وكانت روجى تناجيكى
يا ضيعا نمنا وزغار
يا ما لعبنا بواديكى
ما عاد الورد بنوار
ينفج عطر ويهديكى
ودهر الخط عليك وجار

ما عاد يذكر ماضيكي

* * *

ولادك هجوا من القلى
 ما عاد قدروا حلوا الدين
 تركوك ع هالتلى
 بفصة قلب ودمعه عين
 عصافيرك عم بهلى
 يفور البيدر بالغلى
 وترجع بالجهره تمللى
 الحلوه من مزراب العين

* * *

عَالِضِيْعَا التَّرَكْتَهَا النَّاسُ
 يَا دَنِي حَاجِي تَجْجُورِي
 ذَوَقْتِيهَا مَرَّ الْكَاسِ
 وَيَبَّسَتْ وَرْدَ الْجُورِي
 مَشَّ بَاقِي إِلَّا شَمْسُ اس
 بِكُنَيْسِي ، وَتَفَهْ خُورِي
 وَابْعُدُو يَسْمَعُ قَدَاسِ
 مِنْ الطَّاقَةِ عَصْفُورِ دُورِي
 وَيَنْكَ يَا بَيْتِي الْمَهْجُورِ
 يَا بَيْتَ جَدِي وَبَيْتَ بَيْي

ما في قرنة بالمعمور
متلك بتحن علي
شبايك ربو المتور
بطافاتك غنى العصفور
فيك عيوني شافو النور
وفيك بقمض عيني

ضيقتنا

البحر المزدوج

ضيقتنا غامرها النور
مشرورة عا زاس التل
مدخلها درج زهور
بتشوف جل بظهر الجل
محواضا ورد ومنثور
بتضحكك لمن بتطل
ويبدو وزن صوتو العصفور
عا شلال موتنا !

ضيعة فيها راعي فقير
عيا ما عندو غيرا

يَتَلَقَّفُ فِيهَا بِكِيرٍ
وَيَبْقَعُ عَا التَّشْوِيرَا
وَيَصِيرُ يَفْقَرُ تَنْقِيرِ
تَا تَسْكُرُ الْمَنْجَرَا
وَعَصَايِرِ الْوَادِي تَطِيرِ
وَعَنُو تَرْدُدُ نَعْمَتَا !

* * *

سَنُونُو تَغْطُ مَقَابِلِي
لَا تَخَافْ مِنِّي وَلَا تَنْهَمَّ !
تَرْفُفْ حَوْلِي تَكَاغِلِي
تَا تَفْهَمْنِي إِنَّا أُم

وَتَصِيرُ تَجْنِي بِحِيلِي
وَمِنْ صَوَفِ الْغَنَاتِ تَلَمَّ
وَتَحْسِبُ حَالَا مِنْ الْعِيَلِي
وَالْهَامَا حَقَّ بَطَاقَتَنَا !

* * *

وَالْقَمَرُ كَانَ لَوْ غَايِي
يَبْقَعُ وَيَبْقَعُ وَقَا
مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ جَايِي
يَتَعَرِّشُ دَقَّةً وَدَقَّةً !
شَافَ الشَّمْسَ مَعَرَّائِي

نَقَزْهَا وَقَلًّا : بَقًّا

غَطَسْتُ بِالْبَحْرِ نَكَابِي
وَوَغَابَتْ عَنَّا وَتَرَكْتَنَا !

* * *

وَالصَّبْحَ مِثْلَ الْعَادَى
غَادَى وَمَذَحَذَحَ بَكِيرِ

تَايَغِرُ لِي بِعِيبِ الْوَادَى
وَيَقِيقُ الْعَصَافِيرِ

شَافَ الْمَرْجَى سَجَّادَى
خَضْرَا وَعَلَيْهَا فَرَافِيرِ

غَطَّاهَا بِشَالِ رُمَادَى
وَحَلَا الدِّينِي تَحْسِدَنَا !

* * *

وَبَتَشُوفَ النَّدَى بَنِيَّانَ
عَا مَدَا الْمَرْجَ وَطُولُو

بَتَحَسِّبُ ، فَوْقَ الرِّيحَانِ
الدِّينِي مَشْتَايَ لُولُو

وَفَرَافِيرِ لَوَانِ لَوَانِ
مِنْ زَهْرِهِ لَزَهْرِهِ ، يَقُولُوا :

مَحَلَا الْعَيْشَى بَلْبَنَانِ
وَشِمِ الْهَوَا بَضِيعَتَنَا !

مشتاق ارجع للضيعة^(١)

مشتاق ارجع للضيعة مشتاق كثير
إتعمشَقْ لى بشى تينة وصيد عصفير !
غنت عا بالى الضيعة ويا ما مشتاق
عبي السلى ييكوعى وحوش جرجير !

* * *

مشتاق عا دَقِ المِجُوز ارعى العنزات
ومرَشِقْ ثَوَاتِ العُودى وطعمى القَرَآت !
مِشتاق اِرجع اِتلَفَح تَحْتِ اللوزات !
وَبِشِيَا الضيعة اِصْلَى الدَّبِقِ بكير !

* * *

مشتاق ارجع عالضيعة شوف زفاقى
واسرَحِ بِمُروِجِ الخضرَا وجو الناقى
واسمع دجاجة ستى عمبة — اقى ،
ورافق جدّى وبقراتو وَاَحْمِلُو النير !

* * *

مشتاق ارجع اتفرج عا بيت ببي
وموقدة الكنت حدا مد جري !

(١) ومى على بحرین ، الدعامة الأولى على المزدوج ، وعدد المقاطع فيه ٧ ، والدعامة الثانية على المنساوى وعدد المقاطع فيه ٤ .

مشتاق صوف الصفصافي ونبع المي
حد البيت اللى تركتو أنا وزغير !

* * *

مشتاق ارجع عالضيعا صار لى زمان
تارك مرقى وولادى وكل الاخوان
مشتاق ارجع عالصبرى شوف الفدان
شوف الجحشى والنعبى والقراقير !

قرادى

يا ضيعتنا مشتاقين كيك يا جارة صنين
حلوين ضياعو لبنان لىكن قدك مش حلوين

* * *

نسييتى

(لأميل مبارك)

نسييتى يوم الكنازروح شوقك وتقليل
وهاك الشباك المفتوح المنو كنت توميل

* * *

نسييتى هاذاك المشوار دغوش تملّى جرتنا

ونسيتى بريق الفخار الشائق حالو بجيمنتنا
وقديش نخبر أخبار وكانت حلوة عيشتنا
وع الموقد قدام النار من البسلوطة تشويلي

* * *

النسب

دموعكم لا تحبجوها من المحاجر أسكبوها
واتركوا الزهرة اللطيفة الباكية تودّع أبوها

* * *

غيبتك غيبي طويلة ضاع حلم الصبر منا
قلوبنا صارت ذليلة بس وجّك غاب عنا
يا دموع العين سيلي غاب كوكب من وطننا
وما بقا باليد حيلة الموت ع المقتل طعنّا

* * *

يا صحابي وقفنوني ونص ساعة أمهلوني
أيجوا كلّ القرايب والحباب يودّعوني

الفهرست

الموضوع	صفحة
مشكلتنا اللغوية	١
ما هي اللغة	٧
كيف نشأت اللغة	١٢
اللغة والعرق والعقلية	٢١
علم اللغة	٢٥
أثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي	٣٣
لغة ولهجة	٤٠
السلطة العليا	٤٢
كيف تنشأ اللهجة	٤٦
اللهجة وأسلوب دراستها	٦١
اللهجة اللبنانية	٧٦

[تم بحمد الله وحسن توفيقه طبع كتاب «اللهمجات»
وأسلوب دراستها، في مطبعة الرسالة بالقاهرة في يوم
الأربعاء ٢١ رجب سنة ١٣٧٤ هـ الموافق ١٦ مارس
سنة ١٩٥٥ م].

جبريل عبد الحسي

مدير المطبعة